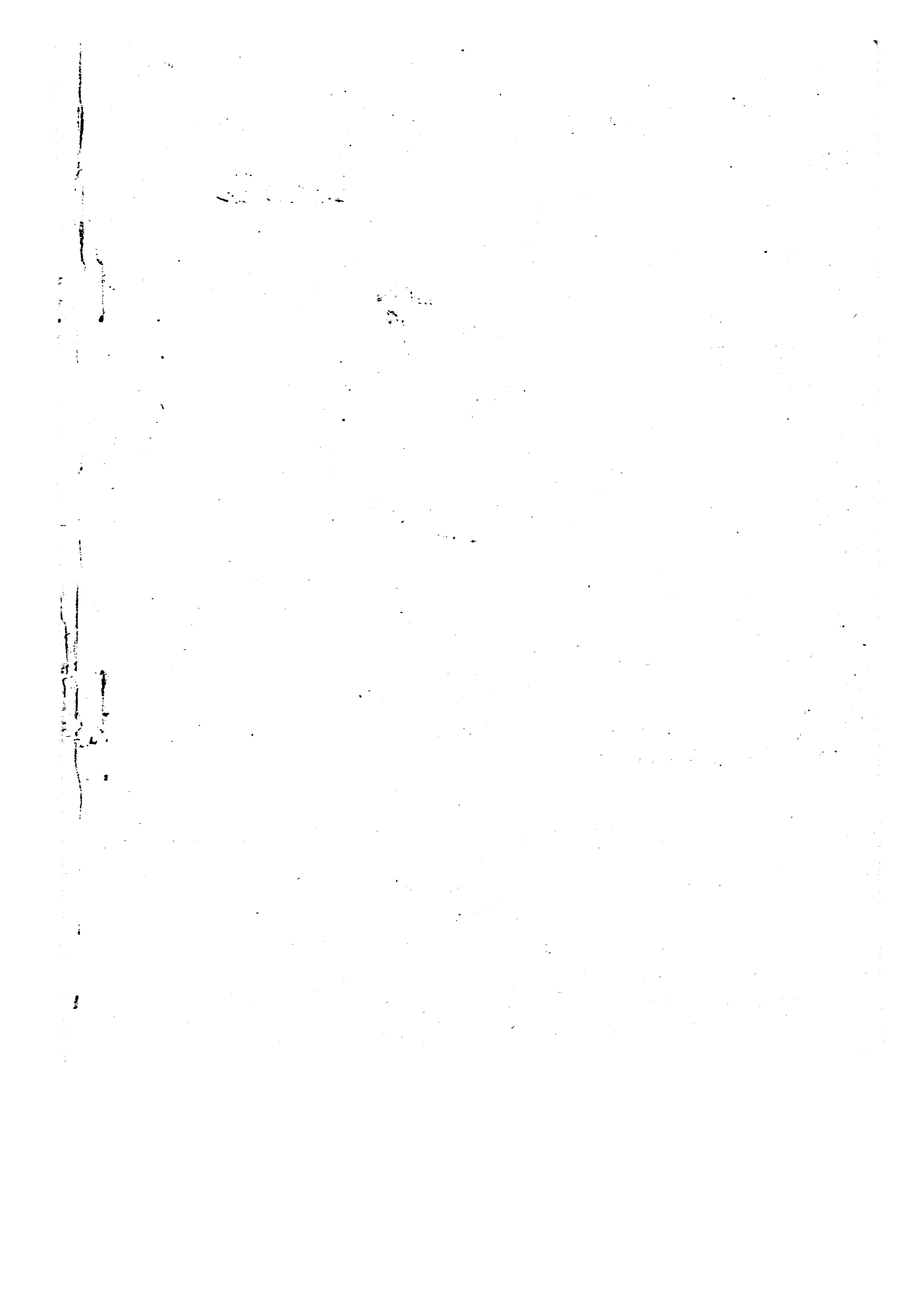
دراسة تطبيقية

في

علم البديع

للدكتور

فتحي فريد



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله بديع السموات والأرض ، والصلاة والسلام على من أيد بأقوى معجزة حار الإنس فى أمرها ، وقال فيها الجن : « إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً »(١) .

وبعد : —

فإن تعدد ألوان البلاغة ، وتنوع فنونها فى النصوص الأدبية منظومها ومنثورها لا تحمد لأصحابها ، ولا تحسب ضمن عوامل إجادتهم ، وبواعث سبقهم وتبريزهم ، إلا إذا كانت لهدف يقتضيها ومن يدعو إليها ، فإذا لم يوجد الهدف ، ولم يتمثل السر ، فإنها تكون إطالة لا داعى لها ، وحشوا لا فائدة منه وغضولا يستغنى الكلام عنه ، يذم عليه الشعراء ويلام بسببه الأدباء .

ولكل علم من العلوم أساسه الذى يرتكز عليه ، وأساس البلاغة وأصلها هو : المطابقة لمقتضى الحال ـ وعلى هدى من هذا الأساس ينبغى أن يكون تقديرنا لفنون البلاغة وتقويمنا لألوانها ، فما اتصل منها بذلك الأساس فقد صادف موطنه وأصاب موقعه وكان جديرا أن يلقب بالبلاغة وحريا بأن ينسب إليها ، وما كان غير ذلك عيب ورد ورفض وذم مهما تكن كثرته ،

---

(١) سورة الجن الآية ١

وكان ذلك المقياس الذى استخدمناه فى الحكم على ألوان البديع وفنونه ، وأنه كما ترى يتسم بالتعقل ويتصف بالإنصاف ، لأنه عن الأساس قد صدر ، وبالأصل يتصل ، وعلى القاعدة ينبنى .

فرجاؤنا أن يكون التوفيق قد حالفنا فيما نهجنا وإلى ما انتهينا .

« وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب »

دكتور
فتحى عبد القادر فريد

مكانة البديع فى الدراسات البلاغية

عرفت أن بلاغة الكلام كما قررها الخطيب القزوينى فى الإيضاح هى :

مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته(١)، وقد يمكن تفسير ذلك بما يتلخص فى أن لكل مقام مقالا - وحيث إن المقامات مختلفة ، فالمقالات هى الأخرى تجىء حتما مختلفة تبعا لاختلاف تلك المقامات ، وأن ارتفاع شأن الكلام فى الحسن والقبول يكون بتلاؤمه مع هذه المقامات ، ومطابقته لتلك الأحوال ، وانحطاطه بعدم توفر تلك المطابقة .

فهذا هو مقياس بلاغة الكلام ، وميزان جمال الأساليب ، فلا يحكم على أى كلام بأنه بليغ أو خارج عن حكم البلاغة إلا بعد وضعه فى الميزان السابق والتأكد من سلامة مفرداته وخلوها مما يعيبها ويقلل من روعتها مما يعرف بالفصاحة التى لابد من توافرها عند الحكم بالبلاغة .

وفى الوقت الذى يتفق فيه كثير من البلاغيين من تقدم منهم ومن تأخر على دقة هذا الميزان ، فإنا نرى كثيرا من المتأخرين منهم يخرجون عليه عند التطبيق وذلك حين يجعلون البلاغة فى علمى المعانى والبيان ويعدون المحسنات البديعية أمرا زائدا وعنصرا ثانويا يؤتى به بعد أن يستوفى الكلام حظه من علمى المعانى والبيان ، مما يمكن للأساليب أن تستغنى عنها ، فلا تعتمد عليها فى الحسن ، ولا تتوقف عليها فى البلاغة .

من ذلك قول الخطيب القزوينى فى مقدمة الإيضاح : « وإذ قد عرفت معنى البلاغة فى الكلام وأقسامها ومراتبها ، فاعلم أنه يتبعها وجوه كثيرة

---

(١) انظر : بغية الإيضاح : عبد المتعال الصعيدى ١/٣٠ .

غير راجعة إلى مطابقة مقتضى الحال ولا إلى الفصاحة تورث الكلام حسنا وقبولا »(١) .

ويعلق سعد الدين التفتازاني صاحب المطول على كلام الخطيب السابق بأنه تمهيد لبيان الاحتياج إلى علم البديع ، كما أن فيه إشارة إلى أن تحسين هذه الوجوه عرضي خارج عن حد البلاغة ، وأن لفظ تتبعها يشعر بأنها إنما تعد محسنة بعد رعاية المطابقة والفصاحة (٢) .

كما يعلق سعد الدين التفتازاني كذلك على تعريف الخطيب لبلاغة المتكلم بأنها ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ ، بأنه تمهيد كذلك لبيان انحصار علم البلاغة في المعاني والبيان .

ويبدأ سعد الدين التفتازاني كلامه عن علم البيان بقوله : « قدمه على البديع لشدة الاحتياج إليه لكونه جزءاً من علم البلاغة ومحتاجاً إليه في تحصيل بلاغة الكلام بخلاف البديع فإنه من التوابع(٣) .

كما يعلق على تعريف الخطيب للبديع وأن حسنه يجيء بعد مراعاة مقتضى الحال ووضوح الدلالة ، بأن المحسنات البديعة إنما تعد محسنة للكلام بعد رعاية الأمرين وإلا لكان كتعليق الدر على أعناق الخنازير(٤) .

فترى من تعريف الخطيب القزويني للبديع ، وتعليقات سعد الدين ، أنه عرضي غير أصيل وزائد غير أساسي ، وحلية يؤتى بها للتزيين ويمكن

(١) انظر : بغية الإيضاح : ١ / ٣٠ .

(٢) انظر : المطول على التلخيص ص : ٣١ . ط أحمد كامل

(٣) المرجع السابق ص : ٣٠٠ .

(٤) المرجع السابق ص : ٤١٦

الاستغناء عنها حيث لا تتوقف البلاغة عليها، ولا يشك فى أن ذلك جور وتعسف ووضع الأمور فى غير موضعها وخروج بها عن ميزان البلاغة السابق الذى يتمثل فى إحكام الأقوال على غرار المقامات، فليس هناك مايعد حسنه أصيلا وما يعد حسنه ثانويا، بل كل ما وافق المقام فهو حسن وبليغ، وكل مالا يوافق مقاما ولا يناسب حالا فهو خارج عن نطاق البلاغة

كما أن علوم البلاغة وحدة متشابكة ونسيج متلاحم لا فصل لواحد منها عن الآخر، فلا يقال: إن المعانى يجىء أولا ويتلوه البيان ثم يتبعهما البديع بل جميعها تكون مراعاة فى النص وملاحظة فى العبارة على درجة واحدة وفى وقت واحد، وكما ناقض المتأخرون أنفسهم بهذا الصنع، فإن المعاصرين كذلك قد وقعوا فى هذا التناقض، حينما راحوا يضعون البديع فى نهاية أبحاثهم ويرونه حلية عارضة وحسنا زائدا، وأخذوا يبثون ذلك فى عقول الناشئة ومن هذا التناقض البين فى الحكم على البديع ماذهب إليه أحد المعاصرين الذين قاموا بتحقيق « إيضاح القزوينى » فقد اعترض أول الأمر على القول بفصل علمى المعانى والبيان عن البديع ورأى أن البديع لا قيمة له إلا معهما ثم عاد فى نفس الصحيفة لينفى ذلك ويرى ثانية أن البديع لا يتوقف على العلمين السابقين لأنه يبحث عن وجوه الحسن بقطع النظر عن اشتراط ذلك فيها، كما يبحث علم المعانى عن المطابقة لمقتضى الحال بقطع النظر عن غيرها وعلم البيان عن وضوح الدلالة بقطع النظر عن غيره(١).

ومن غير شك فإن المحسنات البديعية مثلها مثل غيرها من ألوان البلاغة وفنونها فى علمى المعانى والبيان، من جهة الحكم عليها بالمقياس السابق، ووزنها بالميزان السالف وهو حاجة المقام إليها واستدعاء الحال لها فإذا ماقتضاها الحال، واستلزمها المقام لزم مجيئها، وتحتم ذكرها، وإلا كان الكلام خارجا عن حد الاعتدال.

---

(١) انظر : بغية الإيضاح : عبد المتعال الصعيدى ٤ / ٢ .

فكل ما استلزمه المقام واقتضاه الحال ودعت إليه الضرورة فهو من البلاغة سواء كان من المعانى أو البيان أو البديع ، والعكس صحيح ، فكل ما أقحم على الأسلوب ، وأضيف إلى العبارة بدون ما داع لذلك فإنه يعد زيادة وعبثا وتكلفا ، من أى وجوه البلاغة كان : معانيا أو بيانا أو بديعا وتلك نظرة « المتقدمين » من البلاغيين ، وعلى رأسهم الإمام « عبد القاهر الجرجانى » .

فقد جاءت مؤلفاتهم خالية من هذا التفريق ، وذلك التناقض الذى رأيناه فى دراسات المتأخرين ، إذ ناقشوا مسائل البلاغة وعرضوا لها بصورة موضوعية لم تعرف هذا التفريق ولم تقع فى ذلك التناقض ، كما أطلقوا البديع على وجوه البلاغة عامة ، فهو عندهم مرادف للبيان والبراعة والفصاحة وغير ذلك .

المحسنات البديعية بين اللفظ والمعنى

— ٢ —

وإذا كان المتأخرون قد جانبهم الصواب فى موقفهم السابق من المحسنات البديعية فلم يحالفهم التوفيق كذلك فى نقطة ثانية متصلة بما سبق ، تلك هى تقسيمهم المحسنات البديعية إلى : لفظية أى يعود التحسين فيها أولا وبالذات إلى جانب الألفاظ ومعنوية أى : يرجع تحسينها أولا وبالذات إلى المعانى ، توزيع ثان وتفرقة أخرى ، مرة يردون الجمال إلى الصورة والشكل الممثلة فى الألفاظ وأخرى يردونه إلى المضمون الممثل فى المعانى ، ومعروف أن الجمال لكى يكون جمالا ، وأن الحسن كى يكون حسناً يجب أن يشارك فيه كل من الشكل والمضمون لا أن يكون فى واحد منهما فقط .

وفى هذا يقول المرحوم الأستاذ ، أحمد حسن الزيات : « البلاغة التى أعنيها وأدفع عنها هى البلاغة التى تحدى بها القرآن أمراء القول فى عهد كان الأدب فيه صورة الحياة وترجمة الشعور وعبادة العقل ، هى البلاغة التى لاتفصل بين العقل والذوق ، ولا بين الفكرة والكلمة ، ولا بين الموضوع والشكل ، إذ الكلام كائن حى ، روحه المعنى وجسمه اللفظ ، فإذا فصلت بينهما أصبح الروح نفساً لايتمثل ، والجسم جماداً لايحس(١) .

فالألفاظ الجميلة ما عبر بها عن معنى جميل تقبله النفس ويرتاح له الخاطر كذلك المعانى الجميلة ماألبست ثوبا جميلا وبرزت فى معرض حسن .

كما هو مفهوم من معنى البلاغة التى تتمثل فى أمرين :

---

(١) انظر : دفاع عن البلاغة — أحمد حسن الزيات مطبعة الرسالة .

كلام فصيح ، قد أصيب به غرضه ، ووضع فى مقامه المناسب وموطنه الملائم.

وتلك كانت نظرة شيخ البلاغة «عبد القاهر» الذى رد الجمال إلى النظم فى لفظه ومعناه لا فى واحد منهما كما فعل المتأخرون ، ولنقرأ معى ما يدلك على عمق نظرته وشمول رأيه من قوله فى مقدمة أسرار البلاغة «ومن البين الجلى أن التباين فى هذه الفضيلة ، والتباعد عنها إلى ما ينافيها من الرذيلة ، ليس بمجرد اللفظ كيف ؟ والألفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضرباً خاصا من التأليف . ويعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب فلو أنك عمدت إلى بيت شعر أو فصل نثر فعددت كلماته عدا ، كيف جاء واتفق ، وأبطلت نَضَدَه ، ونظامَه الذى عليه بُنى وفيه أفرغ المعنى وأجرى ، وغيرت ترتيبه الذى بخصوصيته أفاد كما أفاد ، وبنسقه المخصوص أبان المراد ، نحو أن تقول فى (قِفَا نَبكِ من ذكرَى حبيبٍ ومنزلِ).

(منزل قفا ذكرى من نبك حبيب) أخرجته من كمال البيان ، إلى مجال الهذيان نعم وأسقطت نسبته من صاحبه ، وقطعت الرحم بينه وبين منشئه ، بل أحلت أن يكون له إضافة إلى قائل ، ونسب يختص بمتكلم ، وفى ثبوت هذا الأصل ما تعلم به أن المعنى الذى له كانت هذه الكلم بيت شعر ، أو فصل خطاب ، هو ترتيبها على طريقة معلومة ، وحصولها على صورة من التأليف مخصوصة»(١) .

وهكذا يبين عبد القاهر أن الحسن لا يعود إلى الألفاظ لذاتها ، وإنما لتعلقها بالتراكيب ، واتصالها بالمعانى المترتبة فى النفس فيقول أيضا : «وهذا الحكم أعنى الاختصاص فى الترتيب ، يقع فى الألفاظ مرتباً على المعانى المترتبة فى النفس ، المنتظمة فيها على قضية العقل ، ولن يتصور فى الألفاظ

---

(١) أنظر أسرار البلاغة عبد القادر الجرجانى ص ٢ ط رشيد رضا

وجوب تقديم وتأخير ، وتخصيص فى ترتيب وتنزيل ، وعلى ذلك وضعت المراتب والمنازل فى الجمل المركبة ، وأقسام الكلم المدونة ، فقيل : من حق هذا أن يسبق ذلك ، ومن حكم ماهنا أن يقع هنالك كما قيل فى المبتدأ والخبر والمفعول والفاعل ، حتى حظر فى جنس من الكلام بعينه أن يقع إلا سابقاً ، وفى آخر أن يوجد إلا مبنيا على غيره وبه لاحقا ، كقولنا : إن الإستفهام له صدر الكلام ، وإن الصفة لاتتقدم على الموصوف إلاأن تزال عن الوصفية إلى غيرها من الأحكام»(١) .

وبذلك يؤكد عبدالقاهر أن جمال الألفاظ فى تعلقها بالمعانى ، وأن حسنها فى اتصالها بالتراكيب ، وأن الذين ينسبون الجمال للألفاظ ، ويردون الحسن اليها فإنما يعبرون عن ارتياحهم لما تحمله من معان طيبة ، قائلا : «فإذا رأيت البصير بجواهر الكلام يستحسن شعراً ، أو يستجيد نثرا ، ثم يجعل الثناء عليه من حيث اللفظ فيقول : حلو رشيق ، وحسن أنيق ، وعذب سائغ ، وخلوب رائع ، فاعلم أنه ليس ينبئك عن أحوال ترجع إلى أجراس الحروف ، وإلى ظاهر الوضع اللغوى ، بل إلى أمر يقع من المرء فى فؤاده ، وفضل يقتدحه العقل من زناده»(٢) .

لعلك اقتنعت بعد ماسبق بقصر نظر المتأخرين إلى البديع وعدم توفيقهم فى تقسيمه إلى محسنات معنوية ولفظية ، لكنك فى حاجة إلى أن تقف على الدليل وتتأكد من البرهان فاتصنع كما صنع عبدالقاهر إذ قرر بلاغة البديع

---

(١) المرجع السابق .

(٢) وذلك هو ماقرره الخطابى من قبـــله فى قوله : (وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة : لفظ حامل ، ومعنى به قائم ، ورباط لهما ناظم» .

بيان اعجاز القرآن للخطابى ص : ٢٧ ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن

وأثبت أهميته من خلال لونين من ألوانه يتخيل الدارسون أن حسنهما لا يتعدى الألفاظ إلى المعانى وهما : الجناس والسجع — نبدأ الكلام عليهما ثم ننتقل بإذن الله إلى ما عداهما مما أدرجوه تحت المحسنات المعنوية .

الجناس

يقول الله تعالى : (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون(١)) بمجرد أن نسمع هذه الآية التى يصور فيها الحق جل وعلا ما يعترى المشركين من رعب وفزع وندم يوم القيامة نتوهم منذ اللحظة الأولى أنها تضم لفظتين متحدتين فى المعنى لاتحادهما فى الشكل ، وبعد شىء من التروى يظهر لنا أن معناهما مختلف تماما ، فالأولى يراد بها يوم القيامة من إطلاق الجزء وإرادة الكل على سبيل المجاز المرسل ، والثانية يراد بها الساعة الزمنية التى نحصى بها أوقاتنا فى أعمالنا ، وبهذا التأمل يستقر المعنى المراد فى أذهاننا ، بعد أن يزول ما كان هناك من وهم ، والذى دفع القرآن إلى إيثار هذا التعبير هو بلا شك جلال الموقف وعظمته وماله من رهبة — ولست تشك معى فى عدم استقامة المعنى وزوال ماله من حسن لو قيل مثلا : « ويوم تقوم القيامة يقسم المجرمون ما لبثوا غير وقت قصير » .

لا شك أن التعبير القرآنى له بيانه وبلاغته وتأثيره على النفوس ، ولقد نشأ ذلك من استخدام هذا اللون البلاغى الذى استدعاه المقام وتطلبه الموقف وكان سهلا لا تكلف فيه طوعا غير متعمل ويطلق علماء البلاغة على ذلك اللون : الجناس ، ويعرفونه بأنه : تشابه اللفظين فى النطق مع اختلافهما فى المعنى :

(١) سورة الروم الآية ٥٥

واللفظتان السابقتان قد اتفقتا في : أنواع الحروف وعددها وهيئاتها وترتيبها ، لذا كان الجناس بينهما جناسا تاما ، ولما كانا من نوع واحد حيث يتفقان في كونهما اسمين ، سمي الجناس فيهما جناسا تاما متماثلا ، لأن التماثل هو الاتحاد في النوع .

ويقول أبو تمام :

ما ماتَ من كرمِ الزمانِ فإنّهُ يَحْيَا لدى يَحْيَى بنِ عبدِ اللهِ

فيثبت لممدوحه الكرم الزائد ، وأنه قد نشر كل الفضائل وجميع المحامد التي زالت بزوال أصحابها ، فهو يجتهد في أن يعمل بكل ما وسعه على رفعة شأن ممدوحه ، فيصور لنا نشره الفضائل السابقة ، يبعث الموتى وإحيائهم من قبورهم ولا يكتفي بذلك ، بل يشغل فكرنا ويعمل ذهننا في تفهم اللفظتين المتشابهتين ، وهما : يحيا ويحيى - اللتين نظنهما منذ اللحظة الأولى متحدتين في المعنى ، وبعد التروي والتدبر يتبين لنا أنهما مختلفتان تماما ، فالأولى فعل يفيد الزيادة والنمو والثانية علم على الممدوح - وبهذا الجناس الرائع الذي صدر عن طبع لا كلفة فيه واستدعاه المقام ، اكتسب الأسلوب بلاغة ، وأضيف إليه بيان وروعة لا تتم له بدونه لو كان قال مثلا : فإنه يعود لدى يحيى بن عبد الله - والجناس تام لاتفاق اللفظتين في نوع الحروف وعددها وهيئاتها وترتيبها ، ولكون الأولى فعلا والثانية إسما سمي الجناس مستوفى .

ويكون الجناس ناقصا إذا اختلف اللفظان المتجانسان في واحد مما سبق ،

فإن اختلفا في هيئات الحروف سمي : محرفا ، وقد يكون الاختلاف في الحركة كقوله تعالى :

(ولقد أرسلنا فيهم مُنذِرِينَ . فانظُر كيفَ كان عاقبةُ المنذَرِينَ) ،

وقد يكون فى الحركة والسكون كقوله صلى الله عليه وسلم « اللهم كما حسَّنت خَلْقِى فحسِّن خُلُقِى » وكقول معاذ رضى الله عنه « الدَّيْنُ يهدم الدِّين » وكقول أبى العلاء .

والحُسْنُ يظهرُ فى بيتين رونقُـــه
بيتٌ من الشَّعْرِ أو بيتٌ من الشَّعَرِ

فظهور الحسن فى الأول بجمال لفظه ومعناه ، وفى الثانى بجمال الساكنين فيه .

والاختلاف فى أعداد الحروف يكون بزيادة حرف واحد فى الأول كقوله تعالى :

(والتفَّتِ الساقُ بالساقِ ، إلى ربك يومئذ المساقُ)(١) أو فى الوسط كقولهم: جَدِّى جَهْدِى أو فى الآخر كقول أبى تمام :

يمدُّونَ من أيدٍ عواصٍ عواصِمٍ
تصولُ بأسيافٍ قواضٍ قواضِبِ(٢)

وكقول البحترى :

لئن صَدَفَتْ عنّـــا فربَّتَ أنفُسٍ
صوادٍ إلى تلك الوجوهِ الصوادفِ(٣)

---

(١) سورة القيامة : ٢٩ ، ٣٠

(٢) أى يمدون للضرب يوم الحرب أيديا ضاربات للأعداء حاميات للأولياء ، صائلات على الأقران بسيوف بتاكة بالقتل .

(٣) صدفت : أعرضت : صواد : ظامئة

وقد يكون الاختلاف بزيادة أكثر من حرف واحد كقول الخنساء :

إنَّ البُكاءَ هُوَ الشِّفاءُ مِنَ الجَوَى بَينَ الجَوانحْ(١)

فلا يخفى عليك ما يخلعه التجانس الجميل بين : الجوى والجوانح من بهاء على البيت وذلك لعدم التكلف فيه ، ولمناسبته لحال الحزن والتوجع التي تسيطر على نفس الشاعرة .

وإن اختلفا في أنواع الحروف ، ولم يكن الاختلاف في أكثر من حرف ، وتقارب الحرفان المختلفان في المخرج سمي مضارعا كقوله تعالى : (وهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ ويَنْأَوْنَ عَنْهُ(٢)) وقول النبي ﷺ : « الخيلُ معقود بنواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة » .

وإن كانا غير متقاربين سمي : لاحقا : كقوله تعالى : (وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ(٣)) وقوله :

(ذَلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ وبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ(٤)) وقوله تعالى : (وإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ : وإِنَّهُ لِحُبِّ الخَيْرِ لَشَدِيدٌ(٥)) وقوله : (وإذَا جَاءَهُمْ أمْرٌ مِنَ الأمْنِ أوِ الخَوْفِ أذَاعُوا بِهِ) .

وإن كان الاختلاف في ترتيب الحروف سمي جناس القلب ، وذلك بقلب الكل كقولهم :

حسامه فَتْحٌ لأوليائه ، حَتْفٌ لأعدائه — أو قلب البعض — كما ورد في الخبر : « اللهم استر عَوْرَاتِنا ، وآمن رَوْعَاتِنا وقول بعضهم : « رحم الله امرءا أمسك ما بين فَكَّيْهِ ، وأطلق ما بين كَفَّيْهِ » .

---

(١) الجوى : شدة الوجد
(٢) سورة الأنعام آية : ٢٦
(٣) سورة الهمزة الآية : ١
(٤) سورة غافر/٧٥
(٥) سورة العاديات : ٧ ، ٨

الجناس المقبول

تجلى لك مما سبق الأثر البلاغى الذى خلعه الجناس على ما مضى من الأساليب، وقيمته فى إبراز المعانى وتوضيح الأغراض، وذلك إلى جانب الإيقاع الموسيقى الرائع الذى ينشأ عن تشابه الألفاظ وتماثلها. وكان الجناس فيما سبق هذا الأثر الملحوظ لحاجة المقام إليه، واستدعاء الحال له، وعدم التكلف والتمحل فيه. لذلك ورد كثيرا فى القرآن الكريم وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم والمختار الجيد من كلام العرب — وسأعرض بين يديك خلاف ما سبق بعضا مما ورد منه، لتزداد اقتناعا بقيمته البلاغية ومنزلته البيانية.

فما ورد منه فى القرآن الكريم قوله عز وجل: (وأسلمتُ مع سُليمانَ لله ربِّ العالمين) وقوله عز وجل: (فأقِمْ وجهك للدين القيِّم) وقوله: (يخافونَ يومًا تتقلَّبُ فيه القلوبُ والأبصار).

وقوله: (إنى وجَّهتُ وَجْهِىَ للذى فطرَ السمواتِ والأرضَ) وقوله: (فَرَوْحٌ ورَيْحانٌ وجنةُ نعيمٍ).

الروح: الراحة، والريحان: الرزق، وقوله: (ثم كُلِي من كُلِّ الثمرات) وقوله: (أَزِفَتِ الآزِفَةُ) وهى يوم القيامة.

ومن كلام النبى صلى الله عليه وسلم: (الظُّلْمُ ظُلُماتٌ يوم القيامة) وقوله: (المسلمُ من سَلِمَ المسلمُونَ من لسانه ويده) وقوله: (لا يكون ذو الوجْهَيْنِ عند الله وَجِيها).

ومن غير القرآن والحديث — قول الشافعى رضى الله عنه وقد سئل عن النبيذ فقال: أجمع أهل الحرمين على تحريمه — وذم أعرابى رجلا فقال:

إذا سَألَه الحاف ، وإذا سُئِل سوّف ، يحسد على الفضْلِ ، ويزهد فى الإفضال
وكتب العتابى إلى مالك بن طوق قائلا :

أما بعد : فاكتسب أدبا ، تحى نسبا واعلم أن قريبك من قَرُب منك خيره ، وأن ابن عمك من عمك نفعه ، وأن أحب الناس إليك أجداهم بالمنفعة عليك .

وتدرك أن التجانس كان فى كثير مما سبق لاشتراك اللفظتين فى الأصل الذي أخذتا منه ، والمادة التى تفرع منها الاشتقاق .

التجانس المعيب

وينبغى ألا يتبادر إلى فهمنا أن الجناس يرفع من قيمة الأساليب أبدا ، ويعلى من شأنها دائما ، بل إنه يكون كذلك إذا استدعاه المقام ، واقتضته البلاغة ، وورد بسهولة لا كلفة فيها ولا تعمل ، فإذا ما كان على خلاف ذلك حط من قدر الأساليب ، وقلل من روعتها ، وأفقدها سحرها وبيانها ، وكان عبئا عليها . من ذلك قول أبى تمام :

خان الصفاءَ أخٌ خان الزمانُ أخاً   عَنْهُ فَلَمْ يَتَخَوَّنْ جِسْمَه الكَمَدُ

وقوله :

قَرَّتْ بِقُرَّانَ عينُ الدينِ وانْشَتَرَتْ
بالأشترينِ عيونُ الشِّرْكِ فاصْطُلِمَا

وقول الأعشى :

وقد غدوتُ إلى الحانوتِ يتبعنى   شاوٍ مِشَلٌّ شلولٌ شُلْشُلٌ شَوِلُ

وقد بلغ من ثقل هذا البيت أن الآمـــدى قال : قرأ هذه القصيدة على

أبي الحسن علي بن سليمان النحوي قارىء، فلما بلغ إلى هذا البيت قال أبو الحسن صرع والله الرجل

ومنه قول المخزومي في طاهر بن الحسين :

ولو رأى هَـــرِمٌ ممشارَ نائلِهِ لَقِيلَ فى هَرِم قدْ جُنَّ أو هَرِمَا

جمال الجناس في اللفظ والمعنى

تبين لك أن الجناس كان عماد البلاغة فيما سبق من النماذج ، وأن حسنه وجماله تمثل في كل من اللفظ والمعنى لا في اللفظ فقط على ما رآه الخطيب القزويني ومن مضى في ركابه . لأنها وردت بلا تكلف ، مع مناسبتها لمقتضى الحال ، وملاءمتها لدواعي المقام ، ولذلك حينما صدرت عن تكلف ، ونشأت عن تعمل بلا داع يدعو لها ، أو مناسبة تستلزمها ، قلت بلاغتها وزال حسنها وبهاؤها ، وكانت شينا الأساليب لازينا . ولقد أجاد عبد القاهر ، وكان أكثر صوابا ، وأحكم نظراً حينما رأى أن أثر الجناس وروعته تشمل كلا من اللفظ والمعنى ، حينما يصدر عن طبع في قوله : أما التجنيس فإنك لا تستحسن تجانس اللفظتين إلا إذا كان موقع معنييهما من العقل موقعا حميدا ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيدا »(١) . قوله :

فقد تبين لك أن ما يعطى التجنيس من الفضيلة أمر لا يتم إلا بنصرة المعنى ، إذ لو كان باللفظ وحده لما كان فيه مستحسن ، ولما وجد فيه إلا معيب مستهجن ، ولذلك ذم الاستكثار منه والولوع به(٢) » .

وقوله مبينا أن الجناس المقبول الذى يقتضيه المقام لا يستقيم الأسلوب بدونه في قوله :

---

(١) انظر : أسرار البلاغة ص : ٥

(٢) « المرجع السابق

« وعلى الجملة فإنك لا تجد تجنيسا مقبولا ولا سجعا حسنا ، حتى يكون المعنى هو الذى طلبه واستدعاه وساق نحوه ، وحتى تجده لا تبتغى به بدلا ، ولا تجد عنه حولا ، ومن ههنا كان أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه ، وأحقه بالحسن وأولاه ما وقع من غير قصد من المتكلم إلى اجتلابه ، وتأهب لطلبه ، أو ما هو لحسن ملاءمته وإن كان مطلوبا بهذه المنزلة وفى هذه الصورة ».(١)

- بلاغة الجناس

ولا يخفى عليك تبيان السر فيما يخلعه استخدام التجانس بين الألفاظ من جمال على الأساليب ، فى ذلك الانسجام الذى يشمل الكلمات ، وهذا الالتئام بين العبارات ، وتلك الأنغام الجميلة ، وذلك الإيقاع العذب ، الذى يمكن المعانى من النفس ويقررها فى الذهن ، بعد أن يتأكد أن اللفظ الثانى يغاير الأول فى معناه على خلاف ما كان متوهما ، هذه البلاغة يقول عنها عبد القاهر : « واعلم أن النكتة التى ذكرتها فى التجنيس ، وجعلتها العلة فى استيجابه الفضيلة ، هى حسن الإفادة ، مع أن الصورة صورة التكرير والإعادة ، وإن كانت لا تظهر الظهور التام الذى لا يمكن دفعه إلا فى المستوفى المتفق الصورة منه كقوله :

ماماتَ من كَرَمِ الزمانِ فإنه ... يَحْيا لدى يَحْيَى بنِ عبدالله

ومما يظهر ذاك فيه ما كان نحو قول أبى تمام :

يمدون من أيد عواصٍ عواصِمِ ... تصول بأسياف قواضٍ قواضِبِ

وقول البحترى :

لئن صَدَفَتْ عنا فربَّتْ أنفسٍ ... صوادٍ إلى تلك الوجوه الصوادِفِ

---

(١) أسرار البلاغة ص ٧

وذلك أنك تتوهم قبل أن يرد عليك آخر الكلمة كالميم من عواصم ، والباء من قواضب أنها هي التي مضت ، وقد أرادت أن تجيئك ثانية ، وتعود إليك مؤكدة ، حتى إذا تمكن في نفسك تمامها ، ووعى سمعك آخرها ، انصرفت عن ظنك الأول ، وزلت عن الذى سبق من التخيل ، وفى ذلك ماذكرت لك من طلوع الفائدة بعد أن يخالطك اليأس منها ، وحصول الربح بعد أن تغالط فيه حتى ترى أنه رأس المال »(١)

لعلك الآن اقتنعت ببلاغة الجناس ، وقيمته فى بيان المعانى وتثبيتها ، وجمال الأساليب وروعتها ، وأن أثره يعود إلى كل من الألفاظ والمعانى لا فى واحد منهما .

---

(١) انظر المرجع السابق .

واحد والفاصلة فى النثر تقابل القافية فى الشعر، واتفاق الفاصلتين فى الحرف الأخير كاتحاد القافية فى الشعر(١).

وينقسم إلى : مطرف ومتوازن وترصيع .

فإن اختلفت الفاصلتان فى الوزن فهو المطرف ، كقوله تعالى : « مالَكُمْ لاترجُونَ لله وقارًا وقد خَلَقَكُمْ أطوارًا » (٢) . فوقارا وأطوارا يختلفان فى الوزن ولايخفى حاجة الموقف إلى السجع ، وهو اهتمام سيدنا نوح عليه السلام بدعوة قومه إلى الإيمان بالله ، مذكرا إياهم بعجائب قدرة الله فى مراتب الخلقة وأطوارها المتعددة ، فجاء السجع فى مقامه المناسب محققا الغرض المطلوب والهدف المنشود .

وإن لم يختلفا فإن كان مافى إحداهما من الألفاظ أو أكثر مافيها مثل مايقابله من الأخرى فى الوزن والتقفية فهو : الترصيع ، كقوله الحريرى : « فهو يطبع الأسجاع بجواهر لفظه ، ويقرع الأسماع بزواجر وعظه » ، فجميع ما فيهما يتفق فى الوزن والقافية ، ولو وضعت فى الثانية كلمة : الآذان بدل الأسماع ، لكان الاتفاق الأكثر ، والسجعة كما ترى رائعة استدعاها مقام المدح الذى يجتهد فيه المادح على إعــــلاء قدر ممدوحه بكل سبيل ، وقد أسهم التشبيه البليغ فى « جواهر لفظه » والاستعارة الجميلة فى « يقرع » بنصيب موفور فى حسن وقع السجعة .

وإن لم تتفق الفقرتان وزنا وتقفية فى جميع الألفاظ ولا فى أكثرها فذلك السجع المتوازى كقوله تعالى : (فِيها سُرُرٌ مرفُوعَة ، وأكوابٌ

---

(١) انظر : بغية الإيضاح ـــ عبد المتعال الصعيدى ٤/٩٢ .

(٢) سورة نوح ١٣، ١٤ .

مَوْضُوعة (١) » بالاختلاف وزناوقافية ، وقوله سبحانه : « والمرسلاتِ عُرْفًا ، فالعَاصِفَاتِ عَصْفًا » (٢) بالاختلاف وزنا .

الوقف على الفواصل :

ولايغيب عن وعيك أن آخر الفواصل ساكن دائما مما يحتم الوقوف عليها ، وعدم وصلها لتحدث الموسيقى وينتج النغم ، ولايتحقق التجانس ، ولايتم التزاوج إلا بالوقف، ألا ترى إلى قولهم : « ما أبعد مافات وماأقرب ماهوآت » ، فلو حاولت الوصل وأعطيت أواخر القرائن مايقتضيه حكم الإعراب(٣) ، لاختلفت أواخرها ، وذهبت الموسيقى ، وزال النغم الحلو والإيقاع اللذيذ (٤) .

السجع الحسن :

والأسجاع تتفاوت حسنا وجمالا ، باكتمال عوامل الحسن وتوافر عناصر البهجة فيها وأهمها : بعدها عن التكلف ، واقتضاء المقام لها وتمثل الإيقاع الحلو ، والنغم العذب فيها ، لذا كان أحسن الأسجاع ماتساوت فقراته كقوله تعالى : « فى سِدْرٍ مَخْضُــود ، وَطَلْحٍ مَنْضُود ، وظِلّ

---

(١) سورة الغاشية ١٣ ، ١٤ .

(٢) المرسلات ١ ، ٢ .

(٣) بفتح التاء فى « فات » ، وبالكسر مع التنوين فى « آت » .

(٤) انظر : نهاية الأرب للنويرى ٧/٣ ط دار الكتب وبغية الإيضاح ٩٥/٤ ، ٩٦ .

ممدود (١) ثم ما طالت فقرته الثانية (٢) كقوله تعالى : « والنجم إذا هوى . ما ضل صاحبكم وما غوى » أو الثالثة ، كقوله تعالى . « خذوه فغلوه ، ثم الجحيم صلوه » ، وقد اجتمعا في قوله تعالى : « والعصر . إن الإنسان لفي خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

السجع في الشعر :

ولا يختص السجع بالنثر ، بل يرد في الشعر ، كقول الخنساء :

حامي الحقيقةِ ، محمودُ الخليقةِ   مهديّ الطريقةِ ، نفّاعٌ وضرّارُ

ومنه : التشطير : وهو : أن يجعل كل من شطري البيت سجعة مخالفة لأختها ، كقول أبي تمام يمدح المعتصم بالله حين فتح عمورية :

تدبيرُ معتصمٍ ، باللهِ منتقمٍ   لله مرتغبٍ ، في الله مرتقبِ

فالشطر الأول سجعة مبنية على الميم ، والثاني مبنية على الباء .

ومنه : التصريع — وهو أن يكون آخر المصراع الأول المسمى بالعروض متفقا في القافية مع آخر المصراع الثاني المسمى بالضرب كقول أبي فراس :

بأطرافِ المثقفةِ العوالي   تفردنا بأوساطِ المعالي

---

(١) سورة الواقعة : ٢٨، ٢٩، ٣٠ ، السدر : شجرة النبق — مخضود : لا شوك فيه — الطلح : شجر الموز منضود : بالحمل من أسفله إلى أعلاه - تفسير الجلالين ط صبيح ص : ٤٥٣ .

(٢) ولكن لا يقدر كثير لئلا يبعد على السامع وجود القافية فيقل الالتذاذ بسماعها .

وقول عبيد بن الأبرص :

فكلُّ ذي غيبةٍ يؤوبُ وغائبُ الموتِ لا يؤوبُ

وقول امرىء القيس :

ألا أيها الليلُ الطويلُ ألا انجلِ بصبحٍ وما الإصباحُ منكَ بأمثلِ

فلا ينكر ما للأساليب السابقة منثورها ومنظومها من روعة وبيان ، كان للسجع المطبوع الذى جاء سهلا النصيب الأوفر فيه ، وقد عرفت فيما سبق أن البلاغيين المتأخرين قد عدوه محسنا عارضا ، لا يتعدى أثره الجمالى الألفاظ إلى المعانى ، لكنا رأيناهم يتناقضون مع أنفسهم ، فيقرون بأصالة السجع ، ويشهدون بحاجة البلاغة إليه ، وافتقار الأساليب إليه ، وذلك بهذه الشواهد التى يسردونها من القرآن الكريم ، وكلام الرسول صلى الله عليه وسلم ، بل بذكرهم صراحة فى مختتم كلامهم على الألوان البديعية ، أن الحسن لا يتأتى لها ، إلا إذا جاءت ألفاظها تابعة لمعانيها(١) ، وأين هذا ممن عرفوا للسجع بلاغته ، ومنحوه قدره ووضعوه فى ميزانه ؟ وقد قدر الإمام عبد القاهر الجرجانى ، فقد رأى أن السجع حين يستلزمه المقام ، ويقتضيه الحال ، فإنا لا نبتغى به بدلا ولا نجد عنه حولا ، مما جعل العربى يراه أقوم سبيل لعرض شكواه حينما ذهب إلى عامل الماء يقول له : « حلأت ركابى ، وشققت ثيابى وضربت صحابى »(٢) ، ولما اعترض العامل على كلامه المسجع وأنكره بقوله : وتسجع أيضا ؟ اعترته الدهشة ، وتملكه العجب ، حتى قال : فكيف أقول ؟ ذلك أنه كما يقول عبد القاهر لم يعلم أصلح لما أراد من هذه الألفاظ ، ولم يره بالسجع مخلا بمعنى ، أو محدثا فى الكلام استكراها أو خارجا إلى تكلف .

وعلى حد قول الجاحظ : إنه لو قال : حلأت إبلى أو جمالى أو نوقى

---

(١) انظر : بغية الإيضاح ، عبد المتعال الصعيدى ٤/١٠٤ ، ١٠٥

(٢) الركاب : المطى — وحلأت الركاب : منعتها ورد الماء .

أو بعرانى أو صرمتى(١) لكان لم يعبر عن خفى معناه ، وإنما حلت ركابه، فكيف يدع الركاب إلى غير الركاب ؟ وكذلك قوله : وشققت ثيابى وضربت صحابى(٢) .

فعبد القاهر يرى أن جمال الجناس والسجع ليس فى أجراس حروفهما بغض النظر عن معانيهما ، بل أثرهما الجمالى ينسب إلى النظم الذى وردا فيه لفظا ومعنى ، كما يرى « عبد القاهر » أن ترك الجناس والسجع فى الموضع الذى يقتضى المقام استخدامهما إخلال بالبلاغة وتضييع لجمال النظم واقرأ قوله : « فقد تبين من هذه الجملة أن المعنى المقتضى اختصاص هذا النحو بالقبول هو أن المتكلم لم يَقُدِ المعنى نحو التجنيس والسجع ، بل قَادَهُ المعنى إليهما ، وعَبَرَ به الفَرَقُ(٣) عليهما ، حتى إنه لو رام تركهما إلى خلافهما مما لا تجنيس فيه ولا سجع لدخل من عقوق المعنى وإدخال الوحشة عليه فى شبيه بما ينسب إليه المتكلف للتجنيس المستكره ، والسجع النافر(٤) .

السجع فى القرآن الكريم وكلام الرسول صلى الله عليه وسلم :

وإلى جانب الشواهد السابقة للسجع أسوق بين يديك نماذج أخرى من روائع الأسجاع فى القرآن الكريم وكلام الرسول صلى الله عليه وسلم لتقف على بلاغته وتستجلى بهاءه وروعته ، فمن ذلك قول الله عز وجل : « أَوَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ »(٥) وقوله عز وجل : « وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا

---

(١) الصرمة : القطعة من الإبل بين ٣٠ — ٤٠

(٢) انظر : مقدمة أسرار البلاغة : عبد القاهر الجرجانى ص : ٨، ٩ ط سادسة

(٣) الفرق : الخوف .

(٤) انظر : المرجع السابق ص : ٩

(٥) سورة الأعراف الآية ١٠٠

فيه(١) ، وقوله سبحانه « يأيها النَّاسُ اعبدُوا ربَّكم الذِى خلقَكمْ والذينَ مِن قبلِكم »(٢) وقد حدث السجع فيما سبق فى أوساط الآيات ، وقوله سبحانه : « فإذا فرغْتَ فانصبْ. وإلى ربِّكَ فارغَبْ(٣) وقوله : ، فأما اليتيمَ فلا تقهرْ . وأما السائلَ فلا تنهرْ »(٤) .

وقوله : « وأنه هُوَ أضحكَ وأبكَى . وأنَّهُ هُوَ أماتَ وأحْيَا »(٥) وقوله « والعاديات ضَبْحاً . فالموريات قَدْحاً . فالمغيرات صُبْحًا . فأثرْنَ بهِ نَقْعاً . فوسَطْنَ بهِ جَمْعاً (٦) فحدث السجع فى آخرها .

ومن السجع فى كلامه صلى الله عليه وسلم : « أيها الناس : أفْشُوا السلامَ وأطْعِمُوا الطعام ، وصِلُوا الأرحام ، وصلُّوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام » وقوله : « اللهم إن العيش عيش الآخرة ، فاغفر للأنصار والمهاجرة » فقد عدل عن « المهاجرين » إلى « المهاجرة » ليتحقق الانسجام الموسيقى بتوافق الفاصلتين فى الختم بحرف واحد .

وقد تهيب بعض الباحثين القول بوجود السجع فى القرآن ، وأطلقوا على مثل ما سبق فواصل محتجين بأن الفواصل تابعة للمعانى ، وأما الأسجاع فالمعانى تابعة لها ، وأنه لو كان فى القرآن سجع لدخل فى كلام العرب ، ولو دخل فى كلامهم لما وجد فرق بين أسلوب القرآن وأساليب العرب فى

(١) سورة البقرة الآية ٢٩٧
(٢) سورة البقرة الآية ٢١ .
(٣) سورة الشرح ٧، ٨ .
(٤) سورة الضحى ٩، ١٠ .
(٥) سورة النجم ، ٤٣، ٤٤ .
(٦) سورة العاديات الآيات من: ١ — ٥ .

كلامها، مما يحقق أمر الإعجاز البلاغى، كما احتجوا على نفى السجع من القرآن الكريم بإنكار الرسول ﷺ له حينما قال: «أسجعا كسجع الكهان»، لمن اعترضوا على قضائه فى الجنين بغرة عبد أو أمة قائلين: «كيف ندى من لا أكل ولا شرب ولا صاح فاستهل، أليس دمه قد يطل (١)».

وقد ذهب كثير من الباحثين إلى وجود السجع فى القرآن، وأنه لم تخل منه سورة من السور، حتى ليؤتى بالسورة جميعها مسجوعة كسورة الرحمن وسورة القمر وغيرها، ورد والاحتجاج بأن السجع عيب والفواصل بلاغة بأنه اعتراض شكلى لا يتعلق بحقيقة جوهرية، لأنه إن أريد بالسجع ماجاء تابعا للمعنى وكأنه غير مقصود فذلك بلاغة والفواصل مثله، وإن أريد به ماجاء المعنى تبعاً له وكان مقصورا متكلفا فذلك عيب والفواصل مثله (٢).

وأن إنكار الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن لذات السجع، وإنما توجه الإنكار إلى الحكم الذى ورد مسجعا فى كلام الكاهن، وذلك يكاد أن يكون السبب الأهم فى تهيب القول بوجود السجع فى القرآن، إذ كان أسلوب الكهان، كما ذكر الجاحظ فى البيان والتبيين: أن الذى كره الاسجاع بعينها، أن كهان العرب الذين كان أكثر أهل الجاهلية يتحاكمون إليهم وكانوا

---

(١) ودية القتيل: أعطيت ديته، استهل الصبى — صاح عند الولادة طل دمه: أهدر.

وأنظر: ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ص ٩٧، وإعجاز القرآن للباقلانى ت. خفاجى ص: ٨٩ وما بعدها.

(٢) انظر: سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى تحقيق عبد المتعال الصعيدى ص: ١٦٥.

يدعون الكهانة ، كانوا يتكلفون ويحكون الأسجاع(١) .

وهو نفس ما علل به ابن سنان الخفاجي بعد ذلك بقوله : « وأظن أن الذي دعا أصحابنا إلى تسمية كل ما في القرآن فواصل ، ولم يسموا ما تماثلت حروفه سجعا ، رغبة في تنزيه القرآن عن الوصف اللاحق بغيره من الكلام المروى عن الكهنة وغيرهم(٢) :

فلم يكن إنكار الرسول صلى الله عليه وسلم للسجع بل كان الإنكار للحكم الذي أورده الكاهن في كلام مسجع ، ولو كانت كراهية الرسول صلى الله عليه وسلم السجع نفسه لقال : أسجعا ؟ ثم سكت ، وكيف يكرهه عليه الصلاة والسلام وقد ورد كثير من كلامه سجعا ؟ حتى إنه ربما غير الكلمة عن وجهها للموازنة بينها وبين أخواتها ، تحقيقا للتزاوج ، وليتم النظم اتساقه ، وتتوفر له السلاسة والتماثل كقوله صلى الله عليه وسلم : « أُعيذهُ من الهامّة والسامّة ، وكل عين لامّة » ، وإنما أراد ملمة وقوله عليه السلام : « ارجعْنَ مأزُورَاتٍ غير مأجُورَات » ، وقوله السابق : « اللهم إن العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة » بمجيء « المهاجرة » بدل « المهاجرين » لتنسجم مع « الآخرة » .

وأرى أن ما يحتجون به على نفي السجع من القرآن ، من أن الحكم بوجود السجع في القرآن يجعله داخلا في كلام العرب مما يبعد عنه وصف الإعجاز غير سديد ، حيث إن الألوان البلاغية في القرآن غيرها في كلام العرب فإنها في النظم القرآني من مقتضياته ، وعنها يحدث وبها يكون(٣) كما

---

(١) انظر : ثلاث رسائل في إعجاز القرآن تحقيق : محمد خلف الله و د . زغلول سلام .

(٢) انظر : سر الفصاحة ص ١٦٦ تحقيق / عبد المتعال الصعيدي .

(٣) انظر : دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ص ٩٥ تحقيق : المراغي

أن التركيب القرآني مباين لتركيب الكلام العربي ، فللتركيب القرآني روحه الخاصة به التي تمنع غيره من الدنو منه أو الاختلاط به تلك الروح التي لم تعرف في كلام عربي قط غير القرآن ، وبها انفرد نظمه ، وخرج مما يطيقه الناس ، إذ تراه ينظر في التركيب إلى نظم الكلمة وتأليفها ، ثم إلى تأليف هذا النظم فمن ههنا تعلق بعضه على بعض ، وخرج في معنى تلك الروح صفة واحدة هي صفة إعجازه في جملة التركيب(١) .

فلا تهيب ولا حرج من القول بوجود السجع في القرآن الكريم كغيره من ألوان البلاغة الأخرى التي تنتهي الدنيا ولا ينتهي من حصرها واستيعابها في القرآن الكريم ، ولذا كان أبو هلال العسكري (المتوفى سنة ٣٩٥ هـ) موفقا حين رأى ذلك وقرر أن الكلام لا يحسن ولا يحلو حتى يكون مزدوجا وأنه لا يكاد كلام بليغ يخلو عن الازدواج ، ولو استغنى كلام عن الازدواج لكان القرآن ، لأنه في نظمه خارج من كلام الخلق ، وجميع ما فيه يجري على التسجيع والازدواج مخالف في تمكين المعنى وصفاء اللفظ وتضمن الطلاوة والماء لما يجري مجراه من كلام الخلق .(٢)

وقد تسأل : لما كان للسجع هذا الجمال الواضح ، وتلك الروعة البينة فلماذا لم يرد القرآن كله مسجعاً ؟ فإن بعضه مسجع وبعضه غير مسجع ، وقد أجاب على هذا التساؤل صاحب الطراز يحي بن حمزة العلوي بأن القرآن ورد بعضه سجعا وبعضه غير مسجع لأمرين : أحدهما : أن القرآن جاء غاية في الإعجاز ، فلو أتى كله مسجوعا لما تحقق إعجازه ، لأن التزام السجع قد يخرجه عن إعجازه ، فلهذا كان على الأمرين جميعا ، وثانيهما : أن الكلام المسجع أفصح وأبلغ من غير المسجع ، فإتيان ما ليس مسجوعا في القرآن

(١) انظر : إعجاز القرآن للرافعي ص : ٢٧٩ ط التجارية

(٢) انظر . الصناعتين : لأبي هلال العسكري ص : ٢٠٠

يؤذن مع كونه غير مسجوع أنه فى غاية الإعجاز مع عجم الفصحاء ، وفى ذلك دلالة على إعجازه من كل الوجوه(١).

وأوضح من ذلك وأقوى ماقاله ابن سنان الخفاجى قبل العلوى فى الرد على هذا التساؤل ورددّه السيوطى من فى معترك الأقران فى إعجاز القرآن : بأن القرآن نزل بلغة العرب ، وعلى عرفهم وعاداتهم ، وكان الفصيح منهم لايكون كلامه كله مسجوعا لما فيه من أمارات التكلف والاستكراه ، فلم يرد كله مسجوعا جريا منهم على عرفهم فى الطبقة العالية من كلامهم ، ولم يخل من السجع ، لأنه يحسن فى بعض الكلام على الصفة السابقة(٢)

بلاغة السجع :

ولا يشق عليك بعد ما سبق تحديد الأثر البلاغى والسر الجمالى للسجع ، فهى تتمثل فى روعة الإيقاع ، وحلاوة النغم ، الناشئين عن دقة الانسجام بين الألفاظ ، وجمال التزاوج والترابط بين العبارات ، التى تأتى من الأسماع انتباها ، ومن النفوس ترقبا وتلهفا ، مما يمكن المعانى من العقول ويؤكدها بالأفئدة ، وذلك إذا استوفى السجع شرائط حسنه ، وتوافرت فيه بواعث روعته ، وأسباب بهجته وأهمها كما عرفت : كونه غير متكلف قد اقتضاه الحال ودعا إليه المقام ، بما يجعل الألفاظ المسجوعة فى تركيبها تابعة لمعناها لا أن تكون المعانى تابعة للألفاظ وإلا كان ظاهره التمويه وباطنه التشويه كغمد من ذهب ، موضوعة على نصب من خشب ، وأن تكون كل واحدة من السجعتين دالة على معنى مغاير للمعنى الذى دلت عليه الأخرى ، وإلا كان ذلك تكرارا لا فائدة له . فمثل هذه الأسجاع التى تجىء على هذه الطريقة

---

(١) الطراز للعلوى ٣ / ٣٨

(٢) انظر : معترك الأقران فى إعجاز القرآن للسيوطى ١ / ٤٢ وسر الفصاحة ص . ١٦٧ .

تجد آذانا صاغية، وعقولا واعية(١).

وقد صور الدكتور «أحمد موسى» في كتابه القيم «الصبغ البديعي في اللغة العربية» هذا الأثر البلاغي الناشيء عن التسجيع ذاكرا أنه يخامر العقول مخامرة الخمر، ويخدر الأعصاب إخدار الغناء، ويؤثر في النفوس تأثير السحر ويلعب بالأفهام لعب الريح بالهشيم، لما يحدثه من النغمة المؤثرة والموسيقى القوية التي تطرب لها الأذن، وتهش لها النفس، فتقبل على السماع من غير أن يداخلها ملال، أو يخالطها فتور، فيتمكن المعنى في الأذهان ويقر في الأفكار ويعز لدى العقول.(٢)

---

(١) انظر: الطراز للعلوي ٣/ ٢٣.

(٢) انظر: الصبغ البديعي في اللغة العربية د/ أحمد موسى صـ ٤٩٧

من المحسنات المعنوية

الطباق

أبنّا لك فيما مضى قِصَرَ نظرِ مَنْ ذَهبَ إلى أن المحسنات البديعية يصار إليها بعد تمام الكمال ، واستيفائه بحظه من علمى المعانى والبيان لقصد التحسين والتزيين ، وذلك من خلال النظر فى أخص مايعدونه محسنا لفظيا لايتعدى حسنه الألفاظ إلى المعانى ألا وهما : الجناس والسجع .

وقد أدركت أثرهما البلاغى والجمالى فى كل ماوردا فيه من القرآن الكريم والحديث الشريف وكلام العرب ، ونعرض بعد ذلك للنظر فى بعض الألوان الأخرى التى عدوها من المحسنات المعنوية لنثبت قيمتها البلاغية وحاجة الأساليب إليها وتوقف روعة النظم عليها ، بادئين بالطباق .

وقد عرفه أبو هلال العسكرى صاحب الصناعتين والمتوفى سنة ٣٩٥ هـ بأنه : الجمع بين الشىء وضده فى جزء من أجزاء الرسالة أو الخطبة أو البيت من أبيات القصيدة مثل الجمع بين البياض والسواد والليل والنهار والحر والبرد(١)

وهذان اللفظان اللذان يجمع بينهما على سبيل التضاد قد يكونان من نوع واحد اسمين كقوله تعالى : « وتَحْسَبُهُمْ أيقاظاً وهُمْ رُقُودٌ ونُقَلِّبُهُمْ ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشِّمالِ(٢) أو فعلين ، كقوله تعالى : « قل اللهمَّ مالكَ المُلْكِ تُؤتِي المُلْكَ مَنْ تَشاءُ وتَنْزِعُ المُلْكَ مِمَّنْ تَشاءُ وتُعِزُّ مَنْ تَشاءُ وتُذِلُّ مَنْ تَشاءُ بيدِكَ الخيرُ

---

(١) انظر الصناعتين لأبى الهلال العسكرى ص : ٢٢٨ .

(٢) سورة الكهف : ١٨ .

إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) فالآية كما ترى تصور قدرة الحق سبحانه وتعالى التى هى وراء كل ما يحدث ويقع فى هذا الكون، ولا يغيب عنك تبيان ماأحدثه الطباق من أثر فى تجليه هذا المعنى، وقد اقتضى المقام واستلزم الموقف استخدامه الأمر الذى يجعله ذاتيا فى بلاغته وأصيلا فى حسنه وجماله بحيث لا يصلح غيره بما يؤدى معناه مكانه، ولا يستقيم المعنى عند إبداله بغيره، فلو وضع مثلا مكان: تؤتى: تعطى، وتنزع: تأخذ لاختل البناء وذهبت روعة النظم وزال ما تحسه من جمال وبهجة.

ومنه قول النبى صلى الله عليه وسلم للأنصار: «إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع»، وقول أبى صخر الهذلى:

أَمَا وَالَّذِي أَبْكَى وَأَضْحَكَ وَالَّذِي
أَمَاتَ وَأَحْيَا وَالَّذِي أَمْرُهُ الأَمْرُ

ولا ينكر إدراك ما للطباق بين: أبكى وأضحك وأمات وأحيا من أثر فى روعة القسم وقوته فى إبراز عظمة الحق تبارك وتعالى.

وقول بشار:

إِذَا أَيْقَظَتْكَ حُرُوبُ الْعِدَا فَنَبِّهْ لَهَا عُمَرًا ثُمَّ نَمْ

أو حرفين: كقوله تعالى: «لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ. الآية» (٢) فالتطابق بين: لها وعليها، فإن فى اللام معنى الانتفاع، وفى على معنى التضرر، أى لها ما كسبت من خير وعليها ما اكتسبت من شر لا ينتفع بطاعتها ولا يتضرر بمعصيتها غيرها، وتخصيص

---

(١) سورة آل عمران: ٢٦.

(٢) سورة البقرة: ٢٨٦

الخير بالمكسب والشر بالاكتساب لأن الاكتساب فيه اعتمال والشر تشتهيه الأنفس وتنجذب إليه فكانت أجد فى تحصيله وأعمل(١) .

وكقول الشاعر :

على أنَّنى راضٍ بأنْ أحمِلَ الهوَى وأخْلُصَ مِنهُ لاعلَىَّ ولاليَا

فالطباق بين : علَىَّ وليَا — والمعنى: أنه تحمل مايوجب مدحه ولكنه يرضى بأن يخلص منه وليس عليه ذم ولا له مدح .

وقد يكونان من نوعين مختلفين كقوله تعالى : « أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وجعلنَا لهُ نورًا يمشِى به فى النّاسِ كمَنْ مثَلهُ فى الظّلُماتِ ليسَ بخارِجٍ منها كذلكَ زُيِّنَ للكافرِينَ ما كانُوا يعْمَلونَ (٢) أى ضالا فهديناه ، فالأول اسم والثانى فعل ، وفيهما إلى جانب الحسن الذى تجلى عن الطباق بيان من ناحية أخرى وهى : الاستعارة : استعارة الموت للضلال والحياة للهداية ، وبذا تدرك تلاحم البديع وتعانقه مع غيره من وجوه البلاغة فى صنع الحسن وإحداث البيان .

وقــد يكون اللفظان اللذان وقع التطابق بينهما مجازيين كقول ابن رشيق :

وقدْ أطفأوا شمسَ النهارِ وأوقدُوا
نجومَ العوَالِى فى سَماءِ عجاجِ(٣)

---

(١) انظر : المطول على التلخيص لسعد الدين التفتازانى ط أحمد كامل ص : ٤١٧ .

(٢) سورة الأنعام : ١٢٢ .

(٣) العوالى : جمع عالية ، وهى أعلى الرمح ، والعجاج : الغبار .

فالتطابق بين : أطفأوا وأوقدوا ، وفيهما إلى جانب حسن الطباق وجماله جمال وحسن آخر من جهة المجاز بالاستعارة ، ومثله قول الأرجاني :

ولقد نزلتُ من الملوكِ بماجدٍ فقرُ الرجالِ إليه مفتاحُ الغنى

والمعنى : إن فقرهم إليه مفتاح الغنى لهم بما يغدق عليهم من خير ، فالتطابق بين الفقر والغنى ، وتتجلى روعة التشبيه البليغ في «مفتاح الغنى» إلى جوار ما نحسه من روعة الطباق .

والطباق فيما مضى كان مثبتا أي غير منفي لذلك سمي : طباق الإيجاب ، وقد يقع الطباق بالإيجاب والنفي ، أي يكون أحد طرفيه مثبتا والآخر منفيا ، أو أحدهما أمرا والآخر نهيا كقوله تعالى : « ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يعلمونَ يعلمونَ ظاهرًا من الحياةِ الدنيا وهم عن الآخرةِ هم غافلونَ »(١) وقوله سبحانه : « فلا تخشوا الناسَ واخشونِ »(٢) بالأمر والنهي .

طباق التدبيج :

ومن الطباق ما يسمى بالتدبيج ، من دبج الأرض أي : زينها بالنبات وهو أن يذكر في معنى من المدح أو غيره ألوان بقصد الكناية ، كقول أبي تمام في رثاء محمد بن حميد الطوسي :

تردَّى ثيابَ الموتِ حُمرًا فما أتى
لها الليلُ إلا وهْيَ مِنْ سُندسٍ خضرِ

أي ارتدى الثياب الملطخة بالدم فلم ينقض يوم قتله ولم يدخل في ليله

---

(١) سورة الروم : ٦، ٧.
(٢) سورة المائدة : ٤٤ .

إلا وقد صارت الثياب خضرا من ثياب الجنة ، فالطباق بين : حمر وخضر والأول كناية عن القتل ، والثانى كناية عن دخول الجنة ، فقد أسهمت الكناية مع الطباق فى إحداث تلك الروعة التى تحس بها ، وكل منهما قد استدعاه مقام المدح الذى يجعل المادح يبذل أقصى مافى وسعه ليرفع ممدوحه إلى أرقى المنازل وأسماها .

أو بقصد التورية — كقول الحريرى : فمذ ازورّ المحبوبُ الأصفر ، واغبرّ العيش الأخضر ، اسودّ يومى الأبيض ، وابيضّ فودى الأسود ، حتى رثى لى العدو الأزرق ، فياحبذا الموت الأحمر(١) .

فللمحبوب الأصفر معنيان : أحدهما قريب غير مراد وهو إنسان ذو صفرة .

ثانيهما : بعيد مراد وهو الذهب ، وذلك تورية كما ستقف عليها بعد .

وتلاحظ أن كلام الحريرى قد اشتمل خلاف التدبيج بالتورية السابق على تدبيج أيضاً بالكناية ، لأن خضرة العيش كناية عن طيبه ونعومته واغبراره كناية عن قلته ونقصانه ، وسواد يومه كناية عن حزنه ، وبياض فوده كناية عن رقة حاله .

فقد ساهم أكثر من لون من ألوان البيان والبديع فى تكوين ذلك الجمال الذى تحس روعته وتدرك بهجته ، وتلك الألوان كما تبين لك : الكناية والتورية والطباق والعكس والتبديل فى : اسودّ يومى الأبيض ، وابيضّ فودى الأسود ، ومراعاة النظير بالتناسب بين : الأخضر والأصفر والأزرق والأسود لأنها جميعها ألوان .

---

(١) الأصفر : تورية بالذهب ، وخضرة العيش كناية عن طيبة ، والعدو الأزرق : الخالص العداوة ، والموت الأحمر كناية عن الموت الطرى أى الجديد .

ما يلحق بالطباق :

ويلحق بالطباق شيئان : أحدهما : أن يجمع بين معنيين غير متنافيين في ذاتهما ، لكن يتعلق أحدهما بما يقابل الآخر نوع تعلق بسببيه أو لزوم أو نحوهما ، كقوله تعالى « مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ(١) » ، فإن الرحمة لا تضاد الشدة ، وإنما هي مسببة عن اللين الذي هو ضد الشدة ، وقوله تعالى : « وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ »(٢) فابتغاء الفضل لا يضاد السكون ، لكنه يستلزم الحركة المضادة للسكون ، وقد عدل عن لفظ الحركة إلى ابتغاء الفضل لأن الحركة ضربان : حركة لمصلحة وحركة لمفسدة ، والمراد الأولى لا الثانية .

والثاني : ما يسمى : « إيهام التضاد » ، وهو الجمع بين معنيين غير متقابلين عبر عنهما بلفظين يتقابل معناهما الحقيقيان ، كقول دعبل الخزاعي :

لا تَعْجَبِي يا سَلْمَ من رجلٍ ضَحِكَ المشيبُ برأسِهِ فبكى

فالضحك يراد به : ظهور الشيب وانتشاره بكثرة في الرأس ، وهذا المعنى المجازي لا يضاد البكاء ، لكن معناه الحقيقي يضاد البكاء ولا يشق عليك تبيان ما في قول الشاعر من إبداع وبيان ، هذا الإبداع الذي ساهم الطباق في إحداثه وذلك البيان الذي شاركت فيه الاستعارة ، فوقف الطباق إلى جانب الاستعارة في إحداث ما لمسنا من بلاغة ، مما يجعلنا نقر ببلاغته ونشهد بروعته .

---

(١) سورة الفتح : ٢٩

(٢) سورة القصص : ٧٣

من روائع الطباق :

ولما كانت النماذج السابقة للطباق قد جاءت في إطار التقسيمات التي يتوزع إليها لتعين على تفهم صوره وتذكر وجوهه ، لذا فإني أسوق بين يديك مجموعة أخرى من روائع الطباق مما ورد في القرآن الكريم وكلام الرسول ﷺ والمختار من كلام العرب .

من ذلك قول الله عز وجل : « كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ(١) » أي من الكفر إلى الإيمان ، وفيها إلى جوار الحسن الناشيء عن الطباق بيان ثان ناشيء عن الاستعارة في كل منهما ، وقوله تعالى: واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياةً ولا نشوراً(٢) ، وقوله سبحانه: « إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً(٣) » وقوله عز وجل : « وأنه هو أضحك وأبكى وأنه هو أمات وأحيا(٤) » ، ومن كلام النبي صلى الله عليه وسلم قوله السابق للأنصار : « إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع » .

وقد أسهم في حسنه السجع مع الطباق ، وقوله عليه الصلاة والسلام

---

(١) سورة إبراهيم : ٢
(٢) سورة الفرقان : ٣
(٣) سورة الفرقان : ٧٠
(٤) سورة النجم : ٤٣ ، ٤٤

«خيرُ المالِ عينٌ ساهرة لعينٍ نائمة» يعني: عين الماء ينام صاحبها وهي تسقي أرضه، وقد شارك السجع كذلك مع الطباق في روعته وبيانه ومما ورد في كلام العرب ما قاله أعرابي لرجل «إن فلاناً وإن ضَحِكَ لَكَ فإنه يَضْحَكُ مِنْكَ» — فالطباق بين: لك ومنك.

وقول علي كرم الله وجهه ورضي عنه: «أعظم الذنوب ما صغر عندك» وقول الحسن رضي الله عنه: «أما تستحيُون مِنْ طُولِ ما لا تَسْتَحْيُون»، وقول بعضهم لعليل: «إن أعلَّكَ اللهُ في جسْمِكَ فقد أصحَّكَ من ذُنوبك».

ونصح واحد ابنه فقال: «يا بُنَيّ إنَّ مِنَ الناسِ ناساً ينقُصُونك إذا زِدْتهم، وتهون عليهم إذا أكرمْتَهم، ليس لرضاهُم موضعٌ فتقصده، ولا لسُخْطِهم موضعٌ فتحذَرَه، فإذا عرفتَ أولئكَ بأعيانهم، فأبْدِلَهُم وجهَ المودة، وامنعْهمْ موضعَ الخاصة، ليكون ما أبديت لهم من وجه المودة حاجزاً دُونَ شرِّهم، وما منعتهم من موضع الخاصة قاطعاً بحرمتهم».

وقال آخر: «إنا لا نكافىءُ من عصا اللهَ فينا بأكثرَ مِن أنْ نطيعَ اللهَ فيه».

ولو حاولنا أن نتتبع ما ورد في الأساليب العربية من الطباق لأعيانا الجهد.

فالطباق كما رأيته من الألوان البلاغية التي تكسب الأسلوب جمالا وتضفي عليه رونقا وبهاء حين يصدر عن طبع سليم، ويأتي طواعية بلا تكلف وبدون تمحل.

أما سر بلاغته وبواعث روعتـــه ، فتتمثل فيما يصنعه من تمكين المعاني بالأذهان ، وتثبيت لها في الأفئدة ، إذ تبقى العقول مترقبة مجيء الضد ، مشوقة إليه ، متلهفة عليه ، فإذا ما جاء بعد طول ترقب وجد آذاناً صاغية وعقولا واعية ، مصداقاً لقولهم : « الضد أقرب شيء خطورا بالبال عند ذكر ضده » .

المقابلة

وهى تتصل بالطباق ، إذ تتفق معه فى أسرار حسنه وبواعث جماله — وهو التضاد الذى يمكن المعانى من الأذهان ، ويقررها بالأفئدة ، لما يؤدى إليه ترقب الضد من تشوف وتلهف ، حتى إذا ما أتى وجد أذناً مصغية وعقولا واعية ، فيتمكن منها فضل تمكن ، ويستقر بها أيما استقرار .

والمقابلة فى عرف البلاغيين : أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو معان متوافقة ثم بما يقابلها على الترتيب — وتختلف عن الطباق من وجهين :

أحدهما : أن الطباق لا يكون إلا بالجمع بين ضدين ، والمقابلة تكون غالباً بين أربعة أضداد : ضدان فى صدر الكلام ، وضدان فى عجزه ، وتبلغ إلى الجمع بين عشرة أضداد ، خمسة فى الصدر ، وخمسة فى العجز .

وثانيهما : أن المطابقة لا تكون إلا بالأضداد ، والمقابلة تكون بالأضداد وبغير الأضداد(١) .

فمن مقابلة اثنين باثنين قوله تعالى : « فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً جزاءً بما كانوا يكسبون »(٢) فقابل الضحك بقلة بالبكاء بكثرة ، وقد اقتضى موقف الحساب وما فيه من رهبة وماله من جلال أن يؤتى بتلك المقابلة التى زانت الأسلوب ، وهى من الروعة كما ترى بحيث لا يمكن الاستغناء عنها أو التصرف فى ألفاظها بالتبديل والتغيير .

---

(١) انظر : تحرير التحبير لابن أبى الإصبع المصرى ت . د حفنى شرف ص : ١٧٩

(٢) سورة التوبة : ٨٢

ومن ذلك قول النبي ﷺ : «إن الرفقَ لا يكونُ في شيء إلا زانه، ولا يُنزَع من شيء إلا شانه» فقابل بين «الزين» الناشيء عن وجود الرفق، والشين الناتج عن زواله — وقد أسهم السجعُ اللطيف مع المقابلة الحسنة في إضفاء ثوب البهجة والبهاء على قول الرسول ﷺ .

وقول النابغة الذبياني :

فتًى تمَّ فيهِ ما يسرُّ صـــديقَهُ   على أنّ فيهِ ما يسوءُ الأعاديا

فقابل سرور الأصدقاء منه بمساءة أعدائه ، ولا شك أنها مقابلة لطيفة اقتضاها مقام المدح الذى يجتهد فيه المادح كما عرفت على إعلاء قدر الممدوح ورفعه إلى أسمى المنازل وأقصى الغايات .

ولما كان يتوهم أن سرور الأصدقاء لضعفه أتى المصراع الثانى ليدفع ذلك التوهم ، مبيناً أنه قاس فى معاملة أعدائه على الرغم من لينـــه مع الأصدقاء ، وذلك لون من الإطناب يسمى الاحتراس ، فاشترك الاحتراس مع المقابلة كما ترى فى إحداث هذا الحسن وفى تحقيق ذلك الجمال .

ومن مقابلة ثلاثة بثلاثة قول أبى دلامة :

ما أحسنَ الدينَ والدنيا إذا اجتمَعَا
وأقبحَ الكفرَ والإفـــلاسَ بالرجلِ

فأقبح يقابل أحسن ، والكفر يقابل الدين ، والإفلاس يقابل الدنيا . والسكاكى عليه رحمة الله لا يعد البيت من المقابلة ، لتقييد حسن الدين والدنيا باجتماعهما فى الشطر الأول ، وعدم ملاحظة ذلك فى الكفر والإفلاس فى الشطر الثانى .

ونلاحظ أنه تكلف لا داعى إليه . فالشاعر لم ينص على الاجتماع فى الثانى اكتفاء بذكره فى الأول .

وقول أبي الطيب المتنبي :

فلا الجودُ يُفْنِي المالَ والجدُّ مُقْبِلٌ   ولا البخلُ يُبْقِي المالَ والجدُّ مدبر(١)

فالبخل يتقابل مع الجود ، ويبقى مع يفنى ، ومدبر مع مقبل .

ومن مقابلة أربعة قوله تعالى : « فأمّا مَنْ أعطَى واتَّقَى وصدَّقَ بالحُسْنَى فسنُيَسِّرُه لليُسْرَى . وأما مَنْ بَخِلَ واستغنَى وكذَّبَ بالحُسْنَى فسنُيَسِّرُه للعُسْرَى »(٢) .

فكل من أعطى واتقى وصدق واليسرى يقابله كل من : بخل واستغنى وكذب والعسرى ، والمراد باستغنى : أنه زهد فيما عند الله كأنه مستغن عنه فلم يتقه ، أو استغنى بشهوات الدنيا عن نعيم الجنة فلم يتق ، وحينئذ يكون مقابلا لقوله : « استغنى » باستلزامه لعدم الاتقاء . أما جمال المقابلة فلست في حاجة إلى التعرف عليه بعد ما سبق .

مراعاة النظير أو التناسب :

ويتصل بالمقابلة ما يسمى بمراعاة النظير أو التناسب والائتلاف ، وهو : أن يجمع في الكلام بين أمر وما يناسبه لا بالتضاد ، وبه يخرج الطباق ، لأن المناسبة فيه بالتضاد ، كقوله تعالى : « الشمسُ والقمرُ بحُسْبانٍ »(٣) أي يجريان في بروجهما ، ويتحركان في منازلهما وفق نظام سوى ومقياس دقيق ، وبينهما مراعاة نظير لاقترانهما في الخيال ، ولكون كل واحد منهما جسما نورانيا سماويا ، وقول بعضهم للمهلبي الوزير : « أنت أيها الوزير إسماعيليّ الوعد ، شُعَيْبيّ التوفيق ، يوسُفِيّ العفو ، محمديّ الخلق » فالتناسب فيه بين :

---

(١) الجد : الحظ .

(٢) سورة الليل : الآيات من : ٥ — ١١ .

(٣) سورة الرحمن : ٥

إسماعيل وشعيب ويوسف ومحمد عليهم الصلاة والسلام لكونهم جميعا أنبياء الله ، وبين الوعد والتوفيق والعفو والخلق لأنها جميعا صفات .

وكقول البحترى فى وصف الإبل بالهزال ، وبالجمع بين ثلاثة أمور :

كالقسيِّ المعطفاتِ بل الأسـ ـهم مبريةً بل الأوتارِ

فقد شبهها أولا بالقسى ، ثم أضرب إلى تشبيهها بما هو أدق وهو الأسهم ، ثم أضرب إلى التشبيه بما هو أكثر دقة وهو الأوتار ، فالتناسب ظاهر بين القسى والأسهم والأوتار لكونها جميعا من آلات الحرب .

وقد يكون مراعاة النظير بين أكثر من ذلك كقول ابن رشيق :

أصحُّ وأقوى ما سمعناه فى النَّدَى من الخبر المأثور منذُ قديمِ

أحاديثُ ترويها السيولُ عن الحيا عن البحرِ عن كفِّ الأميرِ تميمِ

فقد ناسب فيه بين القوة والصحة والسماع والخبر المأثور والأحاديث والرواية وناسب كذلك بين السيل والحيا والبحر وكف تميم مع ما فى البيت الثانى من صحة الترتيب فى العنعنة إذ جعل الرواية لصاغر عن كابر كما يقع فى سند الأحاديث ، فالسيول أصلها المطر والمطر أصله البحر على ما يقال والبحر أصله كف الممدوح على ما ادعاه الشاعر(١) .

تشابه الأطراف :

يتصل بمراعاة النظير ما يسمى بتشابه الأطراف — وهو : أن يختم الكلام بما يناسب أوله فى المعنى ، كقوله تعالى : « لاتدركهُ الأبصارُ وهو يدركُ

---

(١) المطول على التلخيص : سعد الدين التفتازانى ص : ٤٢٠ .

الأبصارَ وهو اللطيفُ الخبيرُ »(١) فعدم إدراك الأبصار له عز وجل يناسبه « اللطيف » لأن اللطف هو الخفاء ، وإدراكه تعالى الأبصار يناسبه « الخبير » لأن « الخبير » من له علم بالخفيات ، ومن جملة الخفيات ، بل الظواهر الأبصار فيدركها ، وقوله تعالى : « له ما في السموات وما في الأرض وإن الله لهو الغنيُّ الحميدُ » فقد ختمت الآية بما يناسب أولها فقوله : الغنى الحميد ، للتنبيه على أن ماله ليس لحاجة ، بل هو غني عنه جواد به ، فإذا جاد به حمده المنعم عليه .

والتناسب فيما مضى كان ظاهرا ، وقد يكون فيه خفاء كقوله تعالى : « إن تعذبْهُم فإنهم عبادُك ، وإن تغفرْ لهم فإنكَ أنتَ العزيزُ الحكيمُ »(٢) فقد يتوهم أول الأمر أن قوله : « وإن تغفر لهم » يناسبه أن تكون فاصلته من جنس الغفران فيقال : « فيقال : « فإنك أنت الغفور الرحيم » ولكن سرعان ما ينصرف ذلك الوهم عقب التأمل والتدبر ، وتطمئن النفس إلى أن المناسب هو ماختمت به الآية وهو قوله تعالى : « العزيز الحكيم » ذلك أن المتحدث عنهم عصاة مذنبون مستحقون للعقوبة ، والغفران لمن يستحق العقوبة لايملكه أحد سوى العزيز القوى الذى لا يعترض على أمره أحد إذ ليس فوقه أحد ، وهو الحكيم ، لأن الحكيم الذى يضع الشيء في محله والله تعالى كذلك فقد وصف نفسه بالحكيم(٣) للتنبيه على أن فعله ذلك لحكمة وإن كانت قد تخفى على خلقه ، فيتوهم الضعفاء أنها خارجة عن الحكمة ، فكأنه قيل :

إن تعف عن هؤلاء المذنبين فأنت أهل لذلك ، إذ لا اعتراض عليك لعزتك ومع ذلك ففعلك لايخلو عن حكمة قد تخفى عن عبادك .

---

(١) سورة الأنعام : آية ١٠٣ .

(٢) سورة المائدة : ١١٨ .

(٣) على سبيل الاحتراس .

إيهام التناسب :

ويلحق بمراعاة النظير ما يسمى بإيهام التناسب وهو : الجمع بين معنيين غير متناسبين بلفظين بينهما تناسب باعتبار على استعمالهما فى معنيهما ، وإن لم يكونا مقصودين هنا ، كقوله تعالى : « الشمسُ والقمرُ بحسبانٍ ، والنجمُ والشجرُ يسجدانِ » فبين الشمس والقمر مراعاة نظير لكون كل منهما جسما نورانيا سماويا كما تقدم ، ولم يقصد التمثيل باعتبارهما فقط ، ولكن باعتبارهما مع النجم ، والنجم يتناسب معهما باعتبار معناه المتبادر إلى الذهن ، وهو الكوكب المعروف ، لكون كل منهما جسما نورانيا ، وهذا المعنى غير مراد هنا ، أما باعتبار معناه المراد هنا ، وهو النبات الذى لا ساق له(١) فلا توجد مناسبة ، ولذا سمى : «إيهام التناسب» لتخيل المناسبة باعتبار ما يتبادر إلى الذهن أولا من لفظ النجم .

من روائع المقابلة :

وبعيدا عن مجال التقسيمات ، فسأعرض بين يديك صورا من المقابلات الرائعة الواردة فى القرآن الكريم وكلام الرسول ﷺ والمختار من كلام العرب .

فمن القرآن قوله عز وجل : « يومَ يقولُ المنافقونَ والمنافقاتُ للذينَ آمنوا انظرونا نقتبسْ من نورِكُم قيلَ ارجعوا وراءَكُم فالتمسوا نوراً فضُرِبَ بينهم بسورٍ له بابٌ باطنُه فيه الرحمةُ وظاهرُهُ من قِبَلِهِ العذابُ»(٢)

---

(١) كالبقول .

(٢) سورة الحديد : الآية : ١٣ .

وقوله سبحانه : « لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختالٍ فخورٍ(١) .

ومن كلام النبي صلى الله عليه وسلم : « ما قلّ وكفى خيرٌ مما كثُر وألهى » .

ومن كلام العرب قول عبد الملك : « ما حمدتُ نفسي على محبوبٍ ابتدأته بعجزٍ ولا لمتها على مكروهٍ ابتدأته بحزمٍ » .

وشتم رجل الشعبي فقال : إن كنتَ كاذباً فغفر الله لك ، وإن كنتَ صادقاً فغفر الله لي ، وقالوا : غضبُ الجاهلِ في قوله ، وغضبُ العاقلِ في فعله .

أما سر بلاغة المقابلة فهي ما عرفت في الطباق ؛ من تأكيد المعاني وتثبيتها لمجيئها بعد فترة من التشوف والترقب لمعرفة الضد والوقوف عليه والضد أقرب الأشياء خطورا بالبال عند ذكر ضده .

---

(١) سورة الحديد ، الآية ٢٣ .

العكس والتبديل

ومن المحسنات البديعية المعنوية ما يعرف بالعكس والتبديل، وهو: أن تقدم فى الكلام جزءا ثم تعكس. فتقدم ما أخرت، وتؤخر ما قدمت، ويجيء على وجوه: أن يقع بين أحد طرفى جملة وما أضيف إليه، كقول بعضهم: عادات السادات سادات العادات — ومنها: أن يقع بين متعلق فعلين فى جملتين، كقوله تعالى. «يُخْرِجُ الحيَّ من الميتِ ويخرجُ الميتَ من الحيِّ» (١).

وكقول الحماسى:

فردَّ شُعورَهنَّ السودَ بيضاً　　وردَّ وجوهَهنَّ البيضَ سُودَا

وقول سبحانه: «هُنَّ لباسٌ لكُمْ وأنتمْ لباسٌ لهنَّ» (٢) وقوله: «لا هُنَّ حِلٌّ لهمْ ولاهُمْ يحِلُّونَ لهُنَّ» (٣) وقوله: «ما عليكَ مِن حسابِهِمْ مِنْ شيءٍ ومَا مِنْ حسَابِكَ عليْهِمْ مِنْ شَيْءٍ (٤)».

وقول الحسن البصرى: إن مَنْ خوَّفك حتى تلقى الأمنَ خيرٌ ممَّن أمّنك حتى تلقَى الخوفَ.

وقول أبى الطيب:

فلا مجدَ فى الدنيا لمن قَلَّ مالُهُ　　ولا مالَ فى الدنيا لمن قَلَّ مجدُهُ

---

(١) سورة الروم. الآية: ١٩.

(٢) سورة البقرة. ١٨٧.

(٣) سورة الممتحنة. الآية: ١٠.

(٤) سورة الأنعام آيه: ٥٢.

وتلاحظ أن بلاغة هذا اللون تتمثل فى التضاد ، والتبديل بين المتضادين ففيه حسن من جهتين : من جهة ما يؤدى إليه ترقب الضد من تمكين للمعنى وتثبيت له ، وما تحدثه عملية العكس والتبديل من إعمال الذهن فى تفهم المقصود والوقوف على المطلوب وفيه أيضاً زيادة تمكين المعنى وشدة تثبيت له .

كما تدرك أن الحسن الذى اكتسبته الأساليب بسبب الألوان السابقه حسن ذاتى وأصيل وليس طارئا ولا عارضا ، كما يتوزع على الركنين الأساسيين للأسلوب وهما : اللفظ والمعنى وليس واحدا منهما .

ولما كانت هذه الألوان لا يقل أثرها البلاغى والجمالى عن الألوان البلاغية الأخرى التى يقتضيها النظم ويستدعيها المقام فقد جعل لها « عبد القاهر » شأنا فى روعة النظم وبلاغة لا يقل فى ذلك شيئا عن التمثيل والاستعارة ، وقد نص « عبد القاهر » على ذلك فى « دلائل الإعجاز » فى حديثه عن النظم الذى يتحد فى الوضع ويدق فيه الصنع ، وذكر مع التمثيل عدة ألوان من البديع منها : العكس والتبديل الذى عرضنا له بقول سليمان بن داود القضاعى .

فبينا المرءُ فى علياءَ أهوى ومنحط أتيح له اعتلاء
وبينا نعمةٌ إذ حال بؤسٌ وبؤسٌ إذ تعقَّبه ثراءُ(١)

وإن كانت تلك التسمية لم تكن عرفت بعد .

وإذا كان البلاغيون المتأخرون قد جعلوا لكل لون من الألوان السابقه لقبا معينا يميزه عن غيره ، فإن المتقدمين كانوا أصوب رأيا وأحكم

---

(١) انظر : دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى ص ٧٢ ط ثانية .

صنعا ، إذ جمعوها فى مكان واحد كما فعل « أبو هلال العسكرى » فقد درس الألوان الثلاثة المطابقة والمقابلة والعكس والتبديل تحت « المطابقة » فأغنانا عن هذه التفريعات كما أمتعنا بالطريف والظريف من كلام العرب وأدبهم المنظوم منه والمنثور (١) .

(٢) انظر : الصناعتين : لأبى هلال العسكرى ٢٢٨ — ٢٤٩ .

الجمع

نسمع قول الله عز وجل « يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام (١) في ذم هذه الرذائل التي تفسد العقل وتصد عن ذكر الله وتصرف الإنسان عن فعل الخير مجموعة في سياق واحد فنتوق إلى معرفة الحكم فيها ، ونظل في ترقب معرفة هذا الحكم والوقوف على تلك النتيجة ، فإذا جاء قوله عز وجل بعد ذلك مبينا أنها رجس من عمل الشيطان تأكد ذلك الحكم في أذهاننا ، وكان ذلك سبيلا لا بتعادنا عن مقارفة هذه الرذائل وعدم الاقتراب منها ، لذا كان هذا الأسلوب جديراً بأن يوصف بالبلاغة ، وقد لقب البلاغيون ذلك اللون بالجمع وعرفوه بأنه : الجمع بين شيئين أو أشياء في حكم واحد ، أيضا قول الله عز وجل : المالُ والبنونَ زينةُ الحياةِ الدنيا (٢) إذ جمع بين المال والبنين في كونهما زينة الحياة الدنيا . وقول الشاعر :

إن الشبابَ والفراغَ والجِدَهْ مفسدةٌ للمرء أيَّ مَفْسَدَهْ (٣)

فقد جمع الثلاثة في كونها إفسادا شديداً لأخلاق الإنسان . وقول محمد بن وهيب :

ثلاثةٌ تشرقُ الدنيا ببهجتها شمسُ الضحى وأبو إسحاقَ والقمرُ

فقد جمع بين شمس الضحى وأبي إسحاق والقمر في إشراق الدنيا ببهجتها ، وتلاحظ أن الإبداع الذي تجلى في النماذج السابقة لم ينفرد به الجمع ، بل شارك فيه مراعاة النظير أيضاً .

---

(١) الميسر : والأزلام : السهام التي كان أهل الجاهلية يستقسمون بها جمع زلم ، سورة المائدة : ٨٩

(٢) سورة الكهف : آية : ٤٦ (٣) الجدة : الاستغناء .

التفريق

يقول رشيد الدين الوطواط مادحا :

ما نوالُ الغمامِ وقتَ ربيع كنوالِ الأميرِ يومَ سخاءِ
فنوالُ الأميرِ بدرةُ عينٍ ونوالُ الغمامِ قطرةُ ماءِ(1)

بمجرد أن طرق سمعنا البيت الأول ، نجد مشاعرنا تتحرك لهذه الموازنة التي عقدها الشاعر بين جود الأمير وكرمه والسحاب وقت الربيع ، ونظل في تلهف لمعرفة الحكم فيه ، وفي تشوف الوقوف على النتيجة ، حتى يجيء البيت الثاني مقررا تفوق الممدوح في كرمه على السحاب إذ ينفق الآلاف من الدراهم ، بينما يجود السحاب بقطرات من الماء ، وقد أسهم التشبيه بدور كبير في إحداث هذه البلاغة التي تشهدها ، وتحقيق ذاك البيان الذي تدركه فتشبيه الجواد بالسحاب تشبيه قريب لظهور وجه الشبه فيه ، إلا أن تقييد التشبيه والاتيان به مشروطا رفعه إلى درجة عالية ومنزلة سامية ، وبذلك ترى أن ألوان البديع لا تختلف عن غيرها من وجوه المعاني والبيان في تحقيق الحسن وإحداث البيان .

وقد لقبوا ذلك اللون بالتفريق وعرفوه بأنه . إيقاع تباين بين أمرين من نوع واحد في المدح أو غيره .

---

(1) البدرة . كيس فيه ألف دينار أو عشرة آلاف درهم ، والمراد بالعين المال .

التقسيم

نقرأ قول الله عز وجل . « كَذَّبَتْ ثَمُودُ وعادٌ بالقارِعَةِ »(١) فيدفعنا التأمل فى كلام الله والتدبر فيه إلى معرفة النتيجة والوقوف على الجزاء الذى كان من الله لهما على تكذيبهما بيوم القيامة ؛ فإذا جاء قوله تعالى بعد ذلك .

«فأما ثمودُ فأُهلِكوا بالطَّاغِيَةِ، وأما عادٌ فأُهلِكوا بريحٍ صَرْصَرٍ عاتِيَةٍ» محددا جزاء كل فريق ، والنهاية الأليمة لكل مكذب كان ذلك داعيا لتمكن هذا الجزاء من عقولنا ، فلا نسلك مسلكهما ، حتى لا يكون مصيرنا كمصيرهما ، ومآلنا كمآلهما ، وقد لقب البلاغيون ذلك اللون بالتقسيم وعرفوه بأنه . ذكر متعدد ثم إضافة ما لكل إليه على التعيين ، وبذا يختلف عن اللف والنشر الآتى حيث لا يحدد فى النشر ما يختص باللف — ومنه قول الله عز وجل .

« هُوَ الذى يُريكُمُ البرقَ خوفاً وطمعاً ويُنشِئُ السحابَ الثقالَ »(٢) فليس فى رؤية البرق شىء غير الخوف من الصواعق والطمع فى الأمطار ولا ثالث لهما — ومن لطيف ما وقع فى هذه الآية من البلاغة تقديم الخوف على الطمع ، إذ كانت الصواعق تقع من أول برقة ، ولا يحصل المطر إلا بعد توافر البرقات ، ولهذا كانت العرب تعد سبعين برقة وتنتجع فلا تخطىء الغيث والكلأ ، وإلى هذا أشار المتنبى بقوله .

وقد أَرِدُ المياهَ بغيرِ هادٍ ... سِوى عَدِّى لها بَرْقَ الغَمامِ

فلما كان الأمر المخوف من البرق يقع من أول برقة أتى ذكر الخوف فى الآية الكريمة مقدما أولا ، ولما كان الأمر المطمع إنما يقع من البرق

(١) سورة الحاقة : الآيات ٤ ، ٥ ، ٦ (٢) سورة الرعد . ١٢

ناسخاً الخوف لمجيء الفرج بعد الشدة ، والميسرة بعد الأمر المخوف أتى ذكر الطمع فى الآية الكريمة ثانيا ، وليكون الطمع بعد الحزن رحمة من الله سبحانه وتعالى بخلقه ، ، وبشرى بحسن العاقبة لعباده (١) .

ومن رائع التقسيم أيضاً قوله تعالى : « ثُمَّ أورثنا الكتابَ الذينَ اصطفينَا من عبادِنا فمنهمْ ظالمٌ لنفسِهِ ومنهمْ مقتصدٌ ومنهم سابقٌ بالخيراتِ بإذنِ اللهِ ذلكَ هو الفضلُ الكبيرُ »(٢) فإن العالم لا يخلو من هذه الأقسام الثلاثة إما عاص ظالم لنفسه ، إما سابق مبادر للخيرات ، وإما متوسط فيهما .
وقوله تعالى « لِلهِ ملكُ السمواتِ والأرضِ يخلقُ ما يشاءُ ، يَهَبُ لمن يشاءُ إناثاً ويهبُ لمن يشاءُ الذكورَ أو يزوجهمْ ذكراناً وإناثاً ويجعلُ مَنْ يشاءُ عقيماً إنه عليمٌ قديرٌ (٣) فقد استوفى جميع أحوال المتزوجين ولا خامس لها .

وكذا قوله تعالى : « له ما بينَ أيدينَا وما خلْفنَا وما بينَ ذلِكَ وما كانَ ربكَ نَسياً »(٤) فقد استوفى أقسام الزمان ولا رابع لها .

وقوله سبحانه : « واللهُ خلقَ كلَّ دابةٍ منْ ماءٍ فمنهمْ مَنْ يمشِي على بطْنِهِ ومنهمْ مَنْ يمشِي على رِجْلينِ ومنهمْ منْ يمشِي على أربعٍ يخلقُ اللهُ ما يشاءُ إن اللهَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ » (٥) فقد استوفى أقسام الخلق فى المشى .

وقوله تعالى « الذينَ يذكرونَ اللهَ قياماً وقعوداً وعلَى جنوبِهِمْ ويتفكرونَ فى خلقِ السمواتِ والأرضِ ربَّنا ماخلقتَ هذا باطلاً سبحانَكَ فقِنَا عذابَ النارِ » فقد استوفى جميع هيئات الذاكرين (١) .

---

(١) انظر : تحرير التحبير ص : ١٧٤ تحقيق د . حفنى شرف .
(٢) سورة فاطر : ٣٢ . (٣) سورة الشورى : ٤٩ .
(٤) سورة مريم : ٦٤ (٥) سورة النور : ٤٥ .
(١) انظر . معترك الأقران فى إعجاز القرآن للسيوطى تحقيق على البجاوى ص . ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، سورة آل عمران . ١٩١ .

ومن بديع التقسيم فى كلامه صلى الله عليه وسلم قوله . « ليسَ لكَ من مالكَ إلا ما أكلتَ فأفنيتَ ، أو لبستَ فأبليتَ ، أو تصدقتَ فأمضيتَ » ولا رابع لهذه الأقسام ومنه فى كلام الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه . « أنعِمْ على مَن شئتَ تكنْ أميرَه ، واستغنِ عمّن شئتَ تكنْ نظيرَه واحتجْ إلى مَنْ شئتَ تكنْ أسيرَه » فقد استوعب أقسام الدرجات العليا والسفلى والوسطى ، وأقسام أحوال الإنسان ، وبين الفضل والنقص والكفاف ، وأتى فى ضمن ذلك الطباق بين الغنى والحاجة والمناسبة فى أميره ونظيره وأسيره ومن بديع التقسيم فى الشعر قول الشاعر .

ولا يُقيمُ على ضَيمٍ يُرادُ بِهِ
إلا الأذلانِ عيرُ الحيِّ والوَتِدُ

هذا على الخسْفِ مربوطٌ برُمَّتِهِ
وذا يُشَجُّ فلا يرثِي لهُ أحدُ (١)

وجمال التقسيم كان سببا قويا فى إعجاب سيدنا عمر رضى الله عنه بقول زهير .

فإنَّ الحقَّ مقطعُهُ ثلاثٌ يمينٌ أو نِفارٌ أو جَلاءُ
فذلكمُ مقاطعُ كلِّ حقٍّ ثلاثٌ كلهنَّ لكمْ شِفاءُ (١)

وقال : لو أدركت زهيرا لوليته القضاء لمعرفته بأصول الحق .

---

(١) العير : الحمار الوحشى والأهلى وهو المناسب هنا — الخسف : الذل — الرمة : قطعة حبل بالية .

(٢) أى : يحلفون أنهم لم يفعلوا أو يتنافرون إلى حاكم بينهم ، أو يكشفون الأمر حتى ينجلى .

الجمع مع التفريق

يقول رشيد الدين الوطواط مادحا :-

فوجهك كالنار فى ضوئها ... وقلبى كالنار فى حرها

فيسترعى انتباهنا ، ويحرك مشاعرنا ، ويستلفت أنظارنا اشتمال البيت على تشبيهين : فى كل من مصراعيه تشبيه مستقل بنفسه ، مستوف أركانه ، والمشبه به واحد فيهما ، فنحاول تبين سر ذلك ، فنرى الأول قد أخذ من النار ضوءها بينما أخذ منها الثانى حرها ودخانها ، وهذا الخداع بدون ماشك سبيل لثبوت المراد من التشبيهين وتأكده ، وما يتجلى فى البيت من جمال لا يستقل بإحداثه لون واحد ، بل يسام فى وجوده أكثر من لون بلاغى هى : التشبيه ، ومراعاة النظير ، والجمع مع التفريق ، ومنه قول الله عز وجل : « وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شئ فصلناه تفصيلاً »(١) وقد لقب البلاغيون ذلك اللون بالجمع مع التفريق وعرفوه بأنه : إدخال شيئين فى معنى واحد ، والتفريق بينهما من جهة الإدخال .

الجمع مع التقسيم

يقول المتنبى فى مدح سيف الدولة حين غزا خرشنة بأرض الروم ولم يفتحها :

حتى أقام على أرباض خرشنة ... تشقى به الروم والصلبان والبيع

---

(١) سورة الإسراء : ١٢

للسبي ما نكحوا والقتلِ ما ولدوا والنهبِ ما جمعوا والنارِ ما زرعوا(١)

فبمجرد أن سمعنا حكم الشاعر على شقوة الرومان بمحاصرة الممدوح لهم، تأهبنا الوقوف على مظاهر هذا الشقاء، حتى جاء البيت الثانى ملبيا رغبتنا ومحققا بغيتنا، وإذا كان المتنبي قد جمع ثم قسم ما جمعه بعد ذلك. فإن حسان بن ثابت قسّم أولا ثم جمع ما قسّمه فى قوله:

قومٌ إذا حاربوا ضرّوا عدوَّهمُ أو حاولوا النفعَ فى أشياعِهم نفعوا
سجيةٌ تلك فيهمْ غيرُ محدثةٍ إن الخلائقَ فاعلمْ شرُّها البِدَعُ(٢)

فقد قسم فى البيت الأول صفة الممدوحين إلى ضر الأعداء ونفع الأولياء، ثم جمعها فى البيت الثانى فى قوله: سجية تلك — وقد أسهم « الاعتراض » بقوله: « فاعلم » مع هذا اللون فى إحداث ما تشهده من جمال، ولقب البلاغيون هذا اللون بالجمع مع التقسيم، وعرفوه بأنه: جمع متعدد تحت حكم ثم تقسيمه، أو تقسيمه ثم جمعه.

---

(١) الضمير فى أقام لسيف الدولة، والأرباض: جمع رَبَض وهو ما حول المدينة، وخرشنة: بلد بالروم والبيع: جمع بيعة - معبد النصارى - والصلبان جمع: صليب النصارى، أى قاد العساكر حتى أقام حول هذه المدينة وقد شقيت به الروم وهذه الأشياء، فقد جمع فى البيت شقاء الروم بالممدوح إجمالا، ثم قسم فى البيت الثانى وفصله.

(٢) السجية: الطبيعة والغريزة، والخلائق جمع خليقة وهى الخُلُق، والبدع: جمع بدعة وهى الأمر المستحدث، يعنى أن الخلائق شرها ما كان مستحدثا فى الأبناء ولم يكن موروثا عن الآباء.

الجمع مع التفريق والتقسيم

ويتمثل في قول الله عز وجل : « يومَ يأتِ لا تكلَّمُ نفسٌ إلا بإذْنِه فمنهم شقيٌّ وسعيدٌ ، فأما الذينَ شَقُوا ففي النارِ لهمْ فيها زفيرٌ وشهيقٌ، خالدينَ فيها مادامتِ السمواتُ والأرضُ إلا ما شاءَ ربكَ إن ربكَ فعالٌ لما يريدُ ، وأما الذينَ سُعِدُوا ففي الجنةِ خالدينَ فيها مادامتِ السمواتُ والأرضُ إلا ما شاء ربك عطاءً غيرَ مجذوذٍ »(١) فالجمع في قوله : « يوم يأتِ لا تكلم نفس إلا بإذنه » فإن قوله : « نفس » متعدد معنى لأن النكرة في سياق النفي تعم وأما التفريق ففي قوله : « فمنهم شقي وسعيد » والتقسيم في قوله : « فأما الذين شقوا إلى آخر الآية الثانية ، ومنه كذلك .

قول ابن شرف القيرواني :

لمختلفي الحاجاتِ جمعٌ ببابِهِ ... فهذا له فنٌّ وهذا له فنٌّ
فللخاملِ العلْيا وللمعدِمِ الغنَى ... وللمذنبِ العُقبَى وللخائفِ الأمْنُ

فالجمع في المصراع الأول من البيت الأول ، والتفريق في الثاني منه ، وقد قسم في البيت الثاني ما جمعه .

ولا يشق عليك تبيان الأثر البلاغي والجمالي الذي تجلى عن استخدام ذلك اللون في الأساليب السابقة ، ولذلك قرنه « عبد القاهر » بغيره من وجوه البلاغة في حديثه عن النظم الذي يتحد في الوضع ويدق فيه الصنع ، مع المزاوجة والتمثيل والعكس والتبديل ، كما أشاد بروعة الجمع بعد التقسيم مستشهداً بقول حسان الماضي وذكر أن مما جاء منه في غاية الحسن قول القائل :

لو أنَّ ما أنتمُ فيه يدومُ لكمْ ... ظننتُ ما أنا فيـــهِ دائماً أبداً

---

(١) سورة هود الآيات : ١٠٥ — ١٠٨ .

فقد سكنتُ إلى أنّي وأنّكمُ   سنَستَجِدّ خلافَ الحالتين غدا

وذكر «عبد القاهر» أن قوله: سنستجد خلاف الحالتين غداً، جمع لما قبم لطيف وقد ازداد لطفا بحسن ما بناه عليه، ولطف ما توصل به إليه من قوله:

«فقد سكنت إلى أنى وأنكم»(١).

---

(١) راجع: دلائل الإعجاز فى: النظم يتحد فى الوضع ويدق فيه الصنع.

المشاكلة

يقول الله تعالى : (وجزاء سيئة سيئة مثلها) (١) ويقول أيضاً : ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون) (٢) بالتأمل فى القولين الكريمين السابقين نرانا نسأل هذا السؤال : كيف يكون الجزاء على السيئة سيئة . وكيف يكون جزاء المكر مكرا ؟ وبشيء من التروى نتبين السر فى ذلك ، وأن لهذا التعبير غرضا يستلزمه المقام ، ونكتة يستدعيها الحال، فالله عز وجل ينفرنا من فعل المنكرات ، وينهانا عن اقتراف السيئات ، فقدم ذلك فى أسلوب يؤدى إلى هذا التنفير ، حيث ذكر أن الجزاء على السيئات سيكون قاسيا وشديدا لا تقل شدته عن الأثر السيء الذى يترتب على الاقتراف من المعاصى ، وسمى جزاء السيئة سيئة ليشاكل بها لفظ السيئة السابق ، واستخدام السيئة فى الجزاء عليها من قبيل المجاز المرسل لعلاقة السببية إذ السيئة سبب فى الجزاء عليها ، ولا يخفى عليك تبيان الأثر البلاغى الذى أحدثه ذلك الأسلوب من الإيجاز فى التعبير والمبالغة فى بيان المعنى المراد والذى ساهمت المشاكلة مع المجاز المرسل فى صنعه ، كما يأخذنا العجب من نسبة المكر إلى الله عز وجل ؟ ونذهب لنبحث عن الباعث على ذلك فنجد أنه يستوجبه المقام ، ويستلزمه الحال ، فالله عز وجل يتهدد الكافرين ، وينذرهم بالويل والهلاك ، فقدم ذلك فى أسلوب يوحى بهذا إذ سمى الجزاء على المكر مكراً لوقوعه فى صحبة مكر الكافرين السابق زيادة فى ردعهم ومبالغة فى تعنيفهم وتخويفهم ، وكان ذلك أيضاً على سبيل المجاز المرسل لعلاقة السببية لأن المكر سبب فى الجزاء ، وقد أكسبه المشاكلة مع المجاز

---

(١) سورة الشورى : ٤٠ .

(٢) سورة النمل : آية ٥٠ .

المرسل الأسلوب بلاغة لا تكون مع غيابهما من جهة الإيجاز والمبالغة في إفادة المعنى وهو كون الجزاء غاية في الشدة ، وقد لقب البلاغيون هذا اللون بالمشاكلة وعرفوها بأنها : ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقاً أو تقديرا ، ومنها قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « إن الله لا يمل حتى تملوا » ، فالله عزوجل لا يوصف بشيء مما يتصف به خلقه ، إلا أنه نسب الملل إليه مشاكلة لملل عباده ، والمقصود بنفي الملل عنه سبحانه : أنه عزوجل لا يقطع عنا ثوابه وفضله ما دمنا نتوجه إليه بالسؤال ونقصده بالعبادة .

ومنها قول عمرو بن كلثوم :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

فقد أطلق على رده أعتداء المعتدين عليهم ، ومنعهم من الاستمرار في عدوانهم جهلا لوقوعه في صحبة جهلهم السابق ، ولا يكون الجزاء على الجهل جهلا ، لكن الجهل سبب في الجزاء ، لذا ساغ له إطلاق الجهل على الجزاء ، وقد سلك الشاعر هذا الأسلوب ليبالغ في شدة مجازاتهم للمعتدين ردعا لهم ، ومنعا من تفكيرهم في القيام بالعدوان .

وقول ابن جابر الأندلسي .

قالوا : اتخذ دُهْناً لقلبك يَشْفِهِ قلت : ادهنوه بخدِّها المتورِّدِ

فقد وضع : ادهنوه — موضع « متعوه » لأجل المشاكلة .

وروى أن أبا الرقعمق قال : كان لى إخوان أربعة : وكنت أنادمهم أيام الأستاذ كافور الإخشيدى ، لجاءنى رسولهم في يوم بارد ، وليست لى كسوة تحصنى من البرد فقال :

إخوانك يقرأون عليك السلام ، ويقولون لك : قد أصبحنا اليوم ، وذبحنا شاة ثمينة ، فاشته علينا ما نطبخ لك منها ، فقال : فكتبت إليهم :

إخواننا قصدوا الصبوح بسحرة ، فأتى رسولهم إلي خصوصاً
قالوا : اقترح شيئاً نجد لك طبخه قلت : اطبخوا لي جبة وقميصاً

قال : فذهب الرسول بالرقعة (الرسالة) فما شعرت حتى عاد ومعه أربع خلع ، وأربع صرر في كل صرة عشرة دنانير ، فلبست إحدى الخلع وسرت إليهم .

فقد وضع «اطبخوا لي» مكان «خيطوا لي» ليشاكل به لفظ الطبخ السابق .

وفي الأمثلة السابقة رأينا الألفاظ المشاكل بها موجودة في الكلام ، لذا سميت المشاكلة تحقيقية، وقد تكون الألفاظ المشاكل بها غير موجودة وإنما تفهم من سياق الكلام فتسمى المشاكلة تقديرية كقوله تعالى :

«قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ، فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ، صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون »(١) .

والشاهد في قوله : «صبغة الله» فهو مصدر مؤكد لآمنا بالله ، والمعنى «تطهير الله» ، لأن الإيمان يطهر النفوس ، والأصل فيه أن النصارى كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر يسمونه «المعمودية» ويقولون : هو تطهير لهم ، وإذا فعل الواحد منهم بولده ذلك قال : الآن صار نصرانياً حقاً ، فأمر المسلمون بأن يقولوا لهم : قولوا آمنا بالله وصبغنا الله بالإيمان صبغة «لا مثل صبغتنا» ، وطهرنا به تطهيراً ، لا مثل تطهيرنا ، أو يقول المسلمون:

---

(١) سورة البقرة : ١٣٥ - ١٣٨ .

صبغنا الله بالإيمان صبغته ، ولم نصبغ صبغتكم أيها النصارى ، وقد جيء بلفظ الصبغة على طريقة المشاكلة(١) ، كما تقول لمن يغرس الأشجار : اغرس كما يغرس فلان ، تريد رجلا يصطنع الكرام :

فلفظ « صبغة الله » قد وضع موضع « تطهير الله » لوقوعه فى صحبة صبغه النصارى تقديراً لا تحقيقاً ، لأن الصبغ ليس مذكوراً فى كلام النصارى ، لكن لما كان غمسهم أولادهم فى الماء الأصفر يستحق أن يسمى صبغا ، وإن لم يتكلموا بذلك حين الغمس ، وكانت الآية نازلة فى سياق ذلك الفعل ، صار كأن لفظ الصبغ مذكور . والمشاكلة هنا تقديرية .

بلاغة المشاكلة :

ما أظن أن المشاكلة تفترق كثيراً عن الجناس فى الأثر البلاغى الذى يترتب عليهما ويعود على الأسلوب بسببهما مع اختلاف السبيل فى كل منهما ، ولقد عرفت أن بلاغة الجناس فى حسن الإفادة مع أن الصورة صورة التكرير والإعادة ، كذلك يكون الأثر البلاغى للمشاكلة ، إذ يتوهم الناظر أن المعنى الثانى عين الأول فإذا أدام النظر وحقق الفكر تأكد له أنه غيره فيكون ذلك سبباً لرسوخه فى ذهنه واستقراره فى فؤاده .

---

(١) لوقوعه فى صحبة صبغة النصارى تقديراً بهذه القرينة الحالية التى هى سبب النزول من غمس النصارى أولادهم فى الماء الأصفر وإن لم يذكر ذلك لفظا .

الاستخدام

يقول الشاعر :

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

بمجرد أن نقرأ البيت نشعر بشيء من العجب ، ونسأل : ما المراد بالسماء ، والضمير الذى عاد عليها ؟

لكن دهشتنا تزول حينما ندرك أن الشاعر يريد بالسماء المطر على سبيل المجاز المرسل لعلاقته المجاورة حيث ينزل المطر من السماء بقرينة ، نزل — وإن الضمير الذى يعود على السماء يحمل معنى آخر ، وهو النبات — وذلك أيضاً على سبيل المجاز المرسل لعلاقة السببية إذ المطر سبب فى النبات — والقرينة — رعيناه ، وهو الذى أراده الشاعر .

وبهذا الأسلوب الذى اختاره وتلك الطريقة التى سلكها جعلنا لا نتمكن من الوقوف على ما يريده بسهولة ولا ننتهى إليه بسرعة ، بل استغرق شوطاً من التأمل ، وأخذ قدراً من التدبر وهذا التأمل وذلك التدبر مما يجعل المعنى أكثر رسوخاً فى الذهن وأشد تعلقاً بالخاطر ، والذى حمل الشاعر على سلوك هذا السبيل وإيثار هذا اللون من التعبير هو مقام الفخر حيث يصف قومه بالرياسة والغلبة لغيرهم وسعة سلطانهم ، لذا جاء التعبير مناسباً للحال ، وكان أكثر دلالة على ما أراد الشاعر تحقيقه وإثباته لقومه .

وقد تكون الإعادة باسم الإشارة ، كقول الشاعر :

رأى العقيق فأجرى ذاك ناظره
متيم لج فى الأشواق خاطره

فقد أراد بالعقيق المكان ، ثم أعاد اسم الإشارة عليه بمعنى الدم .

كما يكون بالتمييز ، مثل قوله :

حكى الغزال طلعة ولفتة   من ذا رآه مقبلا ولاافتتن

فقوله : طلعة ، يفيد أن المراد بالغزال الشمس ، ولفتة أن المراد به الظبي ، فقد اجتمع أكثر من لون بلاغي على تحقيق هذا الجمال الذي تحسه وتلك الألوان هي : التشبيه والجناس اللطيف بين لفتة ولاافتتن .

والاستخدام الذي نحن بصدده .

وقد لقب البلاغيون هذا اللون بالاستخدام ، وعرفوه بأن : يراد بلفظ له معنيان أحدهما ثم بضميره معناه الآخر ، أو يراد بأحد ضميريه أحد المعنيين ، ويراد بالضمير الآخر معناه الآخر ، كقول البحتري :

فسقى الغضى والساكنيه وإن هم   شبوه بين جوانح وضلوع

فالمعنى الحقيقي للغضى : الشجر ، وقد عاد عليه الضمير أولا بمعنى المكان ، وثانيا بمعنى النار أي أوقدوا بين جوانحي نار الغضا يعني نار الهوى التي تشبه نار الغضا وكلاهما مجازي .

التورية

يقول سراج الدين الوراق(١) :

أصون أديم(٢) وجهى عن أناس ... لقاء الموت عندهم الأديب
ورب الشعر عندهم بغيض ... ولو وافى به لهم « حبيب »

فإنا نقف طويلا عند كلمة « حبيب » ، ونسأل : أيراد بها « المحبوب » وهو المعنى القريب المتبادر إلى الذهن ، والذى مهدله بكلمة « بغيض » قبله ، أم يراد بها المعنى الثانى الذى لا يمر ببالنا ويغيب عن أذهاننا وهو :

« حبيب بن أوس » الشاعر المعروف بأبى تمام ؟

وبشىء من التروى والتثبت يظهر لنا أن المراد هو الثانى لا الأول ، إذ لا علاقة للأول بما يريده الشاعر من ذم هؤلاء الناس ، بعدم تقديرهم الشعر وإهمالهم الشعراء ، ولو كان ما ينشدهم الشعر الشاعر الكبير « أبو تمام » الذى يحفظ شعره كثير من الأدباء ، ويعشقه محبو الشعر وعاشقو الأدب .

فترى أننا لم نتمكن من فهم هذا المعنى المراد البعيد الذى أخفاه الشاعر وستره عن أنظارنا إلا بعد فترة من التأمل مما يمكنه من عقولنا ويجعله أكثر استقرارا وأشد تعلقا بأفئدتنا ، ومن ذلك أيضا قوله نصير الدين الحامى :

أبيات شعرك كالقصـ ... ـور ولا قصور بها يعوق(٣)
ومن العجائب لفظها ... حر ومعناها « رقيق »

---

(١) شاعر مصرى رقيق - ولد سنة ٦١٠ هـ وتوفى سنة ٦٩٥ هـ .
(٢) الأديم : الجلد .
(٣) يعوق : أى يمنع من إدراك جمالها .

فنطيل الوقوف عند كلمة « رقيق » ونتساءل : أيراد بها المعنى القريب المتبادر إلى الذهن ، وهو العبد الرقيق ، الذى يمهد له ذكر الحر قبله أم المعنى البعيد وهو اللطف والرقة ؟ ومن غير شك فهذا المعنى الثانى البعيد هو المراد بدليل حديث الشاعر عن روعة الأبيات ، وأنها كالقصور فى العظمة ، وليس فيها مايقلل من حسنها ، وواضح مقدار ما بذلناه من جهد فى سبيل الوصول إلى ذلك المعنى المقصود مما يجعله أكثر ثباتا وأشد تمكنا ، وقد لقب البلاغيون ذلك اللون بالتورية ، وعرفوها بأن : يطلق لفظ له معنيان :

قريب ظاهر ، وبعيد خفى — ويراد البعيد اعتماداً على قرينة خفية تعينه واشتقاقها من قولهم : وريت عن كذا إذا سترته ، وفى الحديث :

كان إذا أراد سفرا ورى بغيره ، أى ستره وكنى عنه وأوهم أنه يريد غيره .

والتورية إما مجردة — إذا لم تقترن بما يلائم المعنى القريب ، كقوله تعالى :

« الرحمن على العرش استوى »(١) فالمعنى القريب لاستوى : استقر وهو غير مقصود ، ولم يذكر مايلائمه ، والمعنى البعيد : استولى وملك وهو المراد ، والقرينة الصارفة عن إرادة المعنى القريب غير المراد ، والمعينة للمعنى البعيد المراد هى: استحالة الاستقرار الحسى عليه تعالى ، لأنه سبحانه ليس كمثله شىء ولايوصف بصفة من صفات الحوادث ، ومن هذه التورية المجردة قول الصديق أبى بكر رضى الله عنه حين الهجرة وقد سئل عن النبى صلى الله عليه وسلم : فقال : « هاد يهدينى السبيل » فلا يراد بهاد معناه

---

(١) سورة طه : آية : ٥

القريب ، وهو الإرشاد إلى أسرار الطريق ومعالمه ، بل يراد معناه البعيد ، وهو : الهداية إلى الحق والإيمان ، والقرينة : أن كلاهما لم يكن على علم كاف بمعالم الطريق وإنما كان معهما من يدلهما على مسالكه ويرشدهما إلى دروبه ومحاوره .

وإما مرشحة : إذا ذكر معها مايلائم المعنى القريب ، قبلها ، كقوله تعالى: « والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون »(١) فلا يراد الأيادى الحقيقية ، بل المراد المعنى البعيد، وهو القوة والقدرة، بقرينة استحالة اتصافه عز وجل بشيء من صفات الحوادث وقد قرنت بما يلائم المعنى القريب غير المراد قبلها وهو قوله : « بنيناها » فإن البناء يناسب الأيدى ، لذا كانت مرشحة ، وقول الشاعر :

حملناهم طرا على الدهم بعدما خلعنا عليهم بالطعان ملابسا

فالدهم معنيان : قريب ظاهر غير مراد وهو : الخيول السود ، وبعيد مراد وهو : القيود ، بقرينة ما ذكره من خلع الدماء عليهم بالطعان حتى صارت لهم كالملابس — وقد قرنت التورية بما يلائم المعنى القريب قبلها وهو « حملناهم » — كما أن « حملناهم » تفيد استحكام التوهم فى البيت ، حتى لا يفهم عدم إرادة المعنى القريب إلا بعد تأمل طويل .

وقد يجيء اللفظ المرشح للمعنى بعدها ، كقول الشاعر :

أقلعت عن رشف الطلا والثم فى خد الحبب (٢)
وقلت هــذى راحة تسوق للقلب التعب

---

(١) سورة الذاريات : ٤٧ .

(٢) الطلا : ما طبخ من عصير العنب ، والحبب : الفقاقيع التى تعلو الكأس .

فللراحة معنيان : قريب غير مراد هو المضاد للتعب ، و بعيد مرادهو : الخر — وجاء بعدها ما يلائم المعنى القريب وهو : التعب .

الفرق بين التورية والاستخدام .

ولا يشق عليك تبيان الفرق بين التورية والاستخدام ، فهما إن اتفقا فى كون كل منهما لفظة ذات معنيين إلا أنهما يختلفان فالتورية يراد فيها أحد المعنيين ويلغى الآخر ، بينما فى الاستخدام يراد المعنيين معا ، من ذلك قول البحترى الذى مر بك فى الاستخدام :

فسقى الغضى والساكنيه وإن هم شبوه بين جوانح وقلوب

فلفظة « الغضى » محتملة للموضع والشجر ، والسقيا صالحة لها ، فلما قال : « والساكنيه » استعمل أحد معنيى اللفظ وهو دلالته بالقرينة على الموضع ، ولما قال : « شبوه » استعمل المعنى الآخر وهو دلالته بالقرينة على الشجر(١) فتدرك مما سبق ما أضفاه ذلك اللون البلاغى من روعة و بيان على الأساليب السابقة ، وترى أنه لم يكن متكلفاً ولا متمحلا بل كان مناسباً المقام وملائما الحال ، وتتجلى روعته كما ترى فى هذا التوهم الذى يجعلنا نكد الفكر ونجهد الذهن للوقوف على المراد من أى من اللفظين ، فإذا انتهينا إلى المعنى المراد استراح بالنا ، واطمأن خاطرنا ، مما يؤكد المعنى المراد فى عقولنا ويمكنه من أفئدتنا ، والتورية بهذا لها أثرها الجمالى وقيمها البلاغية ، هذا الأثر لا يقل شأنا عن غيرها من وجوه البلاغة ، وتلك القيمة التى يقول عنها « يحيى بن حمزة العلوى » إنها غير خالية عن تفنن فى الكلام واتساع فيه ، وتدل على تصرف بالغ وقوة على تصريف الألفاظ ، واقتدار على المعانى فهى غير خالية عن فن من فنون البلاغة وعلم البديع(٢) .

---

(١) انظر : نهاية الأرب للنويرى ٧ / ١٤٤ ط دار الكتب .

(٢) انظر : الطراز للعلوى ٣ / ٦٢ ، ٦٣ .

اللف والنشر

يقول تعالى: «ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون»(١) فالحق تبارك وتعالى يذكرنا بنعمه، ومن أظهر هذه النعم التى لا يلتفت إليها كثير من الناس الليل والنهار فى تعاقبهما ومجىء كل منهما إثر الآخر بلا توقف وبدون أدنى تمهل، ولكل منهما سماته وآثاره، فالليل للراحة والسكون والنهار فيه العمل والتحرك.

وحتى يستقر هذا المعنى فى فؤادنا، ويثبت فى عقولنا فقد أبرزه الله سبحانه فى هذا الأسلوب، إذ جاء بالليـــل والنهار أولا متصاحبين بواو العطف، ثم ذكر بعد ذلك ما لكل منهما بدون تعيين اعتمادا على فطنة السامع الذى يقف بعد التروى والتأمل على أن السكون يعود إلى الليل، وابتغاء الفضل يتعلق بالنهار، وهذا التصرف الذى يعتمد على الإثارة وتحريك الذهن يؤكد المعنى ويجعله أقوى ثباتا وأشد تعلقا بأفئـــدتنا، وقد شارك الطباق بين: لتسكنوا ولتبتغوا مع هذا اللون فى إحداث ما ترى من بيان وإبداع.

ولقب البلاغيون ذلك اللون باللف والنشر، وعرفوه بأنه: ذكر متعدد على جهة التفصيل أو الإجمال، ثم ذكر ما لكل واحد بدون تعيين، ثقة بأن السامع يرد كلا إلى ما يتعلق به.

ومنه قول ابن حيوس:

فعل المدام ولونها ومذاقها   فى مقلتيه ووجنتيه وريقه

---

(١) سورة القصص: ٧٣.

فالمدام : الخمر ، وفعلها : سلب العقل ، ولونها : الحمرة المشربة بسواد ، ومذاقها حلو عند من يعتادها ، وإلى الأول يرجع قوله : فى مقلتيه ، وإلى الثانى قوله : ووجنيته وإلى الثالث قوله : وريقه .

وقول ابن الرومى :

آراؤكم ووجوهكم وسيوفكم في الحادثات إذادجون نجوم
فيها معالم للهدى ومصابح
تجلو الدجى والأخريات رجوم(١)

فالمعالم تعود إلى الآراء ، والمصابح تعود إلى الوجوه ، والرجوم : تعود إلى السيوف — وقد اجتمع التشبيه والاستعارة فيما سبق مع اللف والنشر فى إحداث الجمال وصنع البيان الذى نلمسه .

وقد جاء النشر فيما سبق على ترتيب اللف ، وقد يأتى على غير ترتيبه ، كقول ابن حيوس :

كيف اسلو وأنت حقف وغصن
وغزال لحظا وقدا وردفا(٢)

فالردف يرجع إلى الحقف والقد يرجع إلى الغصن ، واللحظ يرجع إلى الغزال فجاء النشر على غير ترتيب اللف .

---

(١) الرجوم : الشهب ،

(٢) الحقف : مجتمع الرمل إذاعظم واستدار ، والردف : العجيزة وهو يرجع إلى تشبيهها بالحقف والقد يرجع إلى تشبيهها بالغصن ، واللحظ يرجع إلى تشبيهها بالغزال .

وقول الفرزدق :

لقد خنت قوماً لو لجأت إليهم ... طريد دم أو حاملا ثقل مغرم

لألفيت فيهم معطياً أو مطاعنا ... وراءك شزرا بالوشيج المقوم(١)

فمعطيا يعود إلى كونه حاملا ومطاعنا يعود إلى كونه طريدا على غير ترتيب اللف .

كما قد جاء اللف فيما مضى مفصلا ، وقد يأتي مجملا ، كقوله تعالى :

(وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى(٢)) فالضمير في (قالوا) لأهل الكتاب من اليهود والنصارى ، والمعنى : وقالت اليهود : لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً وقالت النصارى : لن يدخل الجنة ، إلا من كان نصرانيا ، فلف بين القولين ثقة بأن السامع يرد إلى كل فريق قوله وأمناً من الإلباس ، لما علم من التعادي بين الفريقين ، وتضليل كل واحد منهما لصاحبه .

---

(١) الوشيج : شجر الرماح ، المقوم : المثقف .

(٢) سورة البقرة : ١١١ .

تأكيد المدح بما يشبه الذم

يقول الله تعالى فى وصف نعيم أهل الجنة : (لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما إلا قيلا سلاماً سلاماً)(١) تلاحظ أن الله عز وجل ساق ذلك المدح لأهل الجنة ، فى هذا الأسلوب الاستثنائى ، وما ورد قبل إلا صفات مذمومة منفية عن أهل الجنة ، فكان من المرتقب أن يكون ما بعدها من الصفات مخالفاً لما قبلها كما هو المعهود فى أسلوب الاستثناء حيث يأتى ما بعد الأداة مخالفاً لما قبلها لكنا نفاجأ بأن ما يجىء بعد إلا يتلاقى مع ما قبلها ، ويتفق معه ، فما قبلها ينفى وجود اللغو والإثم عنها وما بعدها يقرر أن كل ما فيها سلام ، فما قبلها صفات مدح وما بعدها كذلك ، الأمر الذى يجعل المدح يتأكد ويتقرر لكونه مدحا على مدح ، فالتأكيد فيه كما ترى من جانبين .

الأول : أنه دعوى أقيم عليها الدليل ، والبرهان ، أى لا يسمعون فيها إلا السلام إن كان السلام عيباً ، وكون السلام عيباً محال ، فيكون ثبوت اللغو فيها محالا ، فهو تعليق على المحال .

الثانى : أن الأصل فيما يجىء بعد أداة الاستثناء أن يكون مخالفاً لما قبلها وما قبل أداة الاستثناء صفتا ذم منفية ، فإذا جاء ما بعدها صفة مدح فإن المدح يتأكد لكونه مدحاً على مدح ، وذلك أبلغ وأفخم وأبهى أنواع المدح لكون التأكيد فيه من جهتين .

وقد أطلقوا على هذا اللون : تأكيد المدح بما يشبه الذم وعرفوه بأن يستثنى من صفة ذم منفية عن الشىء صفة مدح بتقدير دخولها فيه .

ومنه قول النابغة الذبيانى :

---

(١) سورة الواقعة : ٢٥ ، ٢٦

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم   بهن فلول من قراع الكتائب

فالتأكيد فيه كما ترى من جانبين ، أى لا عيب فيهم إلا الشجاعة إن كانت عيباً ، وكون الشجاعة عيبا محال ، فيكون ثبوت العيب لهم محالا ، ومن جهة أن ماقبل أداة الاستثناء نفى للعيب عنهم ، وما بعدها إثبات للشجاعة لهم ، فيتأكد المدح لهم .

ومثله قول ابن الرومى :

ليس به عيب سوى أنه   لاتقع العـــين على شبهه

وقول ابن نباتة :

ولا عيب فيها غير سحر جفونها   وأحبب بها سحارة حين تسحر

والنوع السابق من تأكيد المدح بما يشبه الذم ، هو أبلغ أنواع المدح ، لكون التأكيد فيه من جانبين كما رأيت ، وهناك نوع ثان يليه فى الأبلغية وهو : أن تثبت لشيء صفة مدح ، ويعقب بأداة استثناء ، تليها صفة مدح أخرى له ، كقول النبي صلى الله عليه وسلم : « أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش » ، وقول النابغة الجعدى :

فتى كملت أخلاقه غير أنه   جواد فما يبقى من المال باقيا

فالتأكيد فيه كما ترى من جانب واحـــد ، وهو موافقة مابعد أداة الاستثناء لما قبلها على خلاف المعتاد ، لذا كان هذا الضرب أقل بلاغة من سابقه .

ومنه ضرب ثالث : وهو أن يكون الاستثناء فيه مفرغا ، كقوله تعالى: (وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا)(١) أى: ماتعيب منا يا فرعون

---

(١) سورة الأعراف : ١٢٦

إلا أصل المناقب والمفاخر كلها ، وهو الإيمان بآيات الله ، ومثله قوله تعالى : (قل يأهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون(١)) فالاستفهام فيه للإنكار ، والتأكيد فيه كما ترى من جانبين : من أنه دعوى أقيم عليها الدليل والبرهان ، ومن جانب موافقة ما بعد أداة الاستثناء ما قبلها على خلاف المعتاد لذا كان هذا الضرب في بلاغته كالضرب الأول

ويجرى الاستدراك مجرى الاستثناء ، كقول بديع الزمان الهمذاني :

هو البدر إلا أنه البحر زاخراً
سوى أنه الضرغام لكنه الوبل(٢)

---

(١) سورة المائدة : ٥٩

(٢) الزاخر : المرتفع من تلاطم الأمواج ، والضرغام : الأسد ، والوبل : المطر الشديد ، ووجه الشبه في الأول : الرفعة ، وفي الثاني : الكرم ، وفي الثالث : الشجاعة ؛ وفي الرابع الكرم أيضاً لكنه أتم من الأول .

تأكيد الذم بما يشبه المدح

وهو على ثلاثة أضرب كتأكيد المدح بما يشبه الذم :

الضرب الأول : وهو أكثرها بلاغة أن يستثنى من صفة مدح منفية عن الشيء صفة ذم بتقدير دخولها فيه ، كقولك : فلان لاخير فيه إلا أنه يسيء إلى من أحسن إليه ، ففيه تأكيد كما ترى من ناحيتين : من ناحية أنه دعوى أقيم عليها الدليل والبرهان ، أي لاخير فيه إلا الإساءة إلى أحسن إليه ، إن كانت تلك صفة طيبة . وكونها من الصفات الطيبة محالا ، فيكون ثبوت الخيرية له محالا ، ومن ناحية موافقة ما بعد أداة الإستثناء لما قبلها في نفي الخير ، فيتأكد الذم ، لكونه ذما على ذم ، ومنه قول الشاعر :

فإن من لامني لاخير فيه سوى   وصفي له بأخس الناس كلهم

أي : لاخير فيه سوى أنه أخس الناس ، إن كانت خيراً ، وكون الأخسية خيراً محال ، فيكون ثبوت الخير له محالا ، فهو من التعليق على المحال ، كما يلتقي ما بعد أداة الاستثناء مع ماقبلها في نفي الخير عنه ، فيتأكد الذم لكونه ذماً على ذم ، لذا كان هذا الضرب الأول من تأكيد الذم بما يشبه المدح ولكون التأكيد فيه من جهتين .

أما الضرب الثاني : فيليه في الأبلغية ، وهو : أن يثبت لشيء صفة ذم تعقبها أداة الاستثناء ، ثم تليها صفة ذم أخرى ، كقولك : فلان منافق إلا أنه جبان ، فالتأكيد فيه كما ترى من جانب واحد وهو : اتفاق ما بعد أداة الاستثناء مع ماقبلها في إثبات الذم ، فيتأكد الذم ، لكونه ذماً على ذم .

أما الضرب الثالث : وهو أن يؤتى بالاستثناء المفرغ ، فالتأكيد فيه

من جانبين كالضرب الأول ، كقولك : لايستحسن من فلان إلا كذبه ، ولا يستقبح من فلان إلا ذكاؤه ، ففيه تأكيد من ناحيتين : من ناحية كونه دعوى أقيم عليها الدليل والبرهان ، ومن ناحية موافقة ماولى أداة الاستثناء ماسبقها فى تحقيق الذم فيكون أدعى إلى تأكيدهما .

والاستدراك فى ذلك ، كقول الشاعر :

ياحبيب الإله جدلى بقرب ... منك ياصفوة العزيز الرحيم
يارسولا أعداؤه أرذل النا ... س جميعا لكنهم فى الجحيم

فالتأكيد فيه كما ترى من جانب واحد .

التفويف

وهو مايدل على معنى آخر بقرينة أخرى ، واشتقاقه من قولهم : برد مفوف إذا كان على لون ثم خالطه لون أبيض ، ويتحقق هذا اللون إذا حاول الشاعر أو الكاتب أن يمدح شخصاً ما ، ثم يتبع صفات المدح بصفات ذم ، مقترنا بها مايشير إلى كونها مدحا ، حين ذاك يتأكد المدح ، لتوهم السامع أن ماذكر ذم فإذا ماتأمل فى القرائن رآه مدحا فيتأكد المدح آنذاك لكونه مدحا على مدح ، فبلاغة هذا اللون وحسنه تجىء من هذه الناحية ناحية الخداع والإيهام ، وهو يقترب كثيراً من تأكيد المدح بما يشبه الذم ، ومثاله قول جرير .

هم الأخيار منسكة وهديا ... وفى الهيجا كأنهم صقور
بهم حدب الكرام على المعالى ... وفيهم عن مساويهم فتور
خلائق بعضهم فيها كبعض ... يؤم كبيرهم فيها الصغير
عن النكراء كلهم عمى ... وبالمعروف كلهم بصير

فقد تضمن كل واحد من الأبيات السابقة مايرشد إلى الذم، لكنه اقترن به ماأخرجه إلى المدح فقوله : «كأنهم صقور» صفة ذم ، لأن من شأن الصقور الخطف والبغى ، وقد أخرجتها إلى المدح كلمة «الهيجاء» لأن الإنسان إذا كان فى الحرب كالصقر يغلب غيره و يسلبه كان مدحا لامحالة .

كذلك قوله فى البيت الثانى : «وفيهم عن مساويهم فتور» لأن الفتور هو الضعف والعجز وهما من صفات الذم ، وقد أخرجه من الذم إلى المدح قوله : (بهم حدب الكرام على المعالى) لأن الإنسان إذا كان عظيم الولوع بالخصال السامية والمراتب العالية وكان ضعيفاً متكاسلا عن المساوى ففيه نهاية المدح ، وقوله فى البيت الثالث : (يؤم كبيرهم فيها الصغير) ذم ، لأنه لا خير فى الكبير إذا كان مقتديا بالصغير ، وقد خرج إلى المدح بقوله :

(خلائق بعضهم فيها كبعض) الذى دل على أن صغيرهم وكبيرهم سواء فى فعل المعروف والإحسان .

وقوله فى البيت الرابع : (عن النكراء كلهم غبي وبالمعروف كلهم بصير) ذم ، لأن الغباوة صفة ذم ، وقد أصبح مدحا بقوله : (وبالمعروف كلهم بصير) .

فترى كيف أدى ذلك الخداع إلى إحداث هذا الذى نشعر به من جمال وروعة ، والمقام يقتضى هذا فهو مقام المدح الذى يعد له المادحون عدتهم . ويأخذون له أهبتهم .

تجاهل العارف

وهو سوق المعلوم مساق غيره لنكتة كالتوبيخ في قول ليلى بنت طريف الشيباني في رثاء أخيها الوليد حين قتله يزيد بن مزيد الشيباني في عهد هارون الرشيد :

أيا شجر الخابور مالك مورقاً كأنك لم تجزع على ابن طريف(١)

فليلى تعلم أن الشجر لا يجزع ، لأن الجزع لا يكون إلا من العقلاء ، لكنها تجاهلت ذلك ، وأظهرت الشجر بمظهر ذى العقل ، فوبخته على إيراقه وعدم جزعه ، وإذا كان مثل الشجر يوبخ على عدم جزعه فغيره ممن شأنه الجزع أجدر بالتوبيخ .

والمبالغة في المدح ، كما في قول البحترى :

ألمعُ برقٍ سَرَى أم ضَوءُ مصباحِ أم ابتسامتها بالمنظر الضاحى(٢)

فهو يعلم أن الذى ظهر ابتسامتها ، ولكنه تجاهل ذلك للمبالغة في مدحها ، وإفادة أنها بلغت من الحسن مبلغاً يحصل معه ذلك اللبس .

أو في الذم ، كما في قول زهير :

وما أدرى وسوف إخال أدرى أقوم آل حصن أم نساء

فالقوم : تطلق على الرجال خاصة ، وعلى ما يعم الرجال والنساء ، والمراد الأول فهو يعلم أنهم رجال ، ولكنه تجاهل ذلك متظاهراً بأنهم قد التبسوا

---

(١) الخابور : نهر بديار بكر .

(٢) المراد بالمنظر : الوجه أو الفم ، والضاحى : الظاهر .

عليه ، فلايدرى كونهم رجالا أو نساء ، وذلك للمبالغة فى فهم أنهم بلغوا من الضعف حداً يحصل معه ذلك اللبس .

أو التدله فى الحب ، كقول الشاعر :

بالله ياظبيات القاع قلن لنا
ليلاى منكن أم ليلى من البشر

فهو يعلم ، أن ليلى من البشر ، ولكنه تجاهل ذلك مبالغة فى التعلق بها والتدله فى حبها .

والتحقير : كما فى قوله تعالى حكاية عن الكفار : (هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد)(١)فهم يقصدون برجل — سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم — وكأنهم لم يكونوا يعرفون عنه شيئاً سوى أنه رجل ، ولا شك أنه عندهم من الوضوح بمكان .

والتعريض ، كما فى قوله تعالى : (وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين)(٢) فالله ورسوله أعلم بالذى على الهدى ، ولكنه ساق الكلام على هذا النحو للتعريض بعدم هداهم ، وهناك فائدة أخرى ، وهى أنه جىء بهذا الكلام على هذا الوجه من الإبهام ، ليكون سبباً فى بعث المشركين على التدبر والتأمل فى حال أنفسهم من إغارات بعضهم على بعض وسبى ذراريهم واستباحة أموالهم ، وقطع الأرحام ، وإتيان الفروج الحرام وقتل النفوس التى حرم الله قتلها ، وشرب الخمر التى تذهب العقول وتحسن ارتكاب الفواحش وحال النبى والمؤمنين من صلة الأرحام واجتناب

---

(١) سورة سبأ : ٧ (٢) سورة سبأ .

الآثام ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإطعـــام المساكين وبر الوالدين والمواظبة على إطاعة الله تعالى حتى إذا أمعنوا النظر علموا أن النبي عليه السلام والمسلمين على هدى وأنهم على الضلالة ، فيبعثهم ذلك على الإسلام والاهتداء بنوره وتلك فائدة عظيمة .

والإيناس : كقوله تعالى : (وماتلك بيمينك ياموسى)(١) فالمقام مقام هيبة ورهبة والسؤال فيه تأنيس وتطمين لموسى عليه الصلاة والسلام .

---

(١) سورة طه : ١٧

المبالغة

قيمتها البلاغية :

تحدث المتأخرون من البلاغيين عن المبالغة ضمن حديثهم عن المحسنات البديعية التي رأوا أنها يصار إليها للتحسين والتزيين بحيث يمكن الاستغناء عنها ، وسنرى أنها كأي فن بلاغي ، لا يمكن الاستغناء عنها إذا كان المقام يستلزمها والحال يدعو إليها .

كان النابغة الذبياني تضرب له قبة من أدم بسوق عكاظ ، يجتمع إليه فيها الشعراء ، فدخل إليه حسان بن ثابت وعنده الأعشى وقد أنشده شعره وأنشدته الخنساء إحدى مراثيها ، فقال النابغة : لولا أن أبا بصير أنشدني قبلك ، لقلت إنك أشعر الناس ، أنت والله أشعر من كل ذات مثانة ، فقالت والله ومن كل ذى خصيتين ، فقال حسان : أنا والله أشعر منك ومنها قال النابغة : حيث تقول ماذا ؟ قال : حيث أقول :

لنـا الجفَنَاتُ الغرُّ يلمَعْنَ بالضُّحَى
وأسيافُنَا يقطرْنَ من نجدَةٍ دَمَا

ولدنَا بنى العنقاءِ وابنَىْ محرِّقٍ
فأكرِمْ بِنَا خالاً وأكرِمْ بِنَا ابنَمَا

فقال النابغة : إنك لشاعر ، لولا أنك قللت عدد جفانك ، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك ، وفي رواية أخرى أنه قال له : قللت الجفنات فقللت العدد ، ولو قلت : الجفان لكان أكثر ، وقلت : يلمعن فى الضحى ، ولو قلت : يبرقن بالدجى لكان أبلغ في المديح ، لأن كل شىء يلمع عند طلوع الشمس عليه ، والضيف بالليل أكثر طروقاً ، وقلت : يقطرن من نجدة دما ، فدللت على قلة القتلى ، لأن القطرة قليلة حقيرة ،

ولو قلت : يجرين أو يسلن بدلا من : يقطرن لكان أكثر لانصباب الدم ، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك ، فقام « حسان » منكسراً ، منقطعاً ، فقد أخذ على « حسان » ما سبق لعدم « مبالغته » فى مقام المبالغة(١) .

المبالغة إحدى ثمرات البيان :

ويؤكد قيمة المبالغة ، ويوضح منزلتها من البلاغة غير ما سبق ، أنها تعدهدفا للبيان بجميع ألوانه ، ومقصداً من مقاصد التشبيه والمجاز والكناية وذلك باعتراف المتأخرين جميعهم ، فكيف تكون أصلا مرة وفرعاً مرة أخرى ؟

انظر إلى ما تحدثه المبالغة من روعة التصوير وجمال التعبير فى أسلوب التشبيه فى قول زهير :

لسانُ الفتَى نصفٌ ونصفٌ فؤادُهُ

فلم يَبْقَ إلا صورةُ اللحمِ والدَّمِ

فقد بالغ فى قوله حتى جعل حقيقة الإنسان بلسانه وقلبه ، الذى يتميز بهما عن سائر الحيوانات ، ولو أنه قال : تميز الإنسان عن غيره من الحيوانات بقلبه ولسانه لما كان ذلك الحسن ، وماتجلت تلك الروعة .

كما نلمس أثر المبالغة التى يحدثها أسلوب التشبيه فى قول ابن دريد :

والناسُ ألفٌ منهمُ كواحدٍ وواحدٌ كالألفِ إنْ أمرٌ عَنَا

فقد بالغ فى ذم الجمع الكثير من الرجال الذين لاينتفع بهم فى مواقفه

---

(١) انظر : المثل السائر لابن الأثير ٣ / ١٨٦

الخطر ، ولا يعتمد عليهم فى الأمور الجسام ، كما بالغ فى مدح الشخص القوى ذى العزم الأكيد ، والرأى السديد الذى يعتمد عليه فى الملمات ، وينهض بحسم المشكلات ، ويقوم بما لا يستطيع ألف من الرجال القيام به .

وتلمس كذلك قيمة المبالغة كثمرة من ثمار البيان بألوانه فى المجاز بأنواعه :

مرسلا كقوله تعالى : « وأعدُّوا لهُم ما استطعتم من قُوةٍ . . . »(١) فلا يخفى ما يفيده التعبير بلفظ « قوة » من شمول جميع أنواع الأسلحة والذخائر التى تجعل جيش المسلمين دائما وأبدا فى الميزان الأرجح ، والمستوى الأقوى .

وعقليا : كقوله تعالى : « تجرِى من تحتِهِمُ الأنهارُ فى جَنَّاتِ النعيم »(٢) وما يفيده إسناد الجرى للأنهار وهو للماء فى حقيقته ، من كثرة الماء وشدة تدفقه ، وسرعة جريه بما يُخيل أن الأنهار هى التى تجرى .

واستعارة : كقوله سبحانه « واخفِضْ لهُمَا جناحَ الذُّلِّ مِنَ الرحمةِ »(٣) وما يفيده ذلك التصوير من المبالغة فى احترام الوالدين ورعايتهما فى الكبر والاهتمام بكل شئونهما اهتماما لا حد له .

كذلك نجد المبالغة إحدى ثمار التعبير الكنائى ، ففى قوله تعالى : « ويومَ يعَضُّ الظالمُ على يديْهِ يقولُ يا ليتَنِى اتخذْتُ معَ الرسولِ سبيلاً(٤) » .

---

(١) سورة الأنفال : ٦٠

(٢) سورة يونس : ٩

(٣) سورة الإسراء : ٢٤

(٤) سورة الفرقان : ٢٧

من المبالغة فى وصف ندم الظالمين وحسرتهم مالا يكون أبدا مع استخدام أطول العبارات فى وصف ذلك .

فتدرك من هذه اللمحة السريعة أن المبالغة هدف من أهداف البيان وثمرة من ثماره ، ويمكنك أن تستوفى معرفة ذلك على التمام بالنظر فى أساليب البيان ، فسترى أن المبالغة تلازمه فى جميع أساليبه لاتنفك عن واحد منها ، لأن المقام يستدعيها ، والحال يقتضيها ، مما يؤكد لك قيمة المبالغة ويوضح أهميتها ، وأنها ليست ثانوية بل أساسية .

المبالغة وموقف البلاغيين والنقاد منها :

والمبالغة هى : أن يدعى لوصف بلوغه فى الشدة أو الضعف حدا مستحيلا أو مستبعداً لئلا يظن أنه غير متناه فيه .

ولم يتفق البلاغيون والنقاد على موقفهم منها :

فبعضهم رفضها جملة وتفصيلا ، اعتماداً على أن خير الكلام ما كان سبيلا إلى الحق ، وبرهاناً على الصدق ، ويذكرون فى ذلك قول حسان ابن ثابت :

وإنما الشعرُ لبُّ المرءِ يعرضُه ... على المجالسِ إنْ كيساً وإنْ حُمُقَا

فإن أشعرَ بيتٍ أنتَ قائلُه ... بيتٌ يقالُ إذَا أنشدْتَه صَدَقَا

وبعضهم يقبلها جملة وتفصيلا ، استناداً إلى أن أحسن الشعر أكذبه وأحلى الكلام ما كان مبالغاً فيه ، وشاهدهم على هذا قول البحترى :

كلّفتمونا حدودَ منطقِكُم ... فى الشعرِ : يغنِى عنْ صدقِهِ كَذِبُه

فقد أراد: كلفتمونا أن تجرى مقاييس الشعر على حدود المنطق ونأخذ نفوسنا فيه بالقول المحقق، حتى لاندعى إلا مايقوم عليه من العقل برهان يقطع به مع أن الشعر يكفى فيه التخيل، والذهاب بالنفس إلى ماترتاح إليه من التعليل، إذ أن الصنعة إنما يتسع مجالها، وتتفرع أفنانها، حيث يذهب بالقول مذهب المبالغة والإغراق فى المدح والذم، والوصف، والشكوى والفخر، وسائر أغراض الكلام ومقاصده، فهنالك يجد القائل سبيلا إلى أن يبدع ويجيد، ويبدىء فى اختراع الصور ويعيد.

وهذا المذهب فى قبول المبالغة مرة واحدة غير سديد، لأن منها ما يخرج عن الحد فيعظم فيه الغلو والإغراق كما يحكى عن أقوام أغرقوا فيها وتجاوزوا الحد بحيث لا يمكن تصور ماقالوه.

وفريق ثالث: يرى أن المبالغة مقبولة إذا جاءت على حد الاعتدال ومرفوضة إذا جاوزت الاعتدال - وهذا هو مذهب الجمهور وهو الصحيح، لورود المبالغة فى القرآن الكريم كنز البلاغة ومنبع البيان والفصاحة وكلام الرسول صلى الله عليه وسلم(١).

أقسامها:

وهذا الوصف الذى ادعى بلوغه فى الشدة أو الضعف إن كان ممكنا عقلا وعادة سمى تبليغاً، كقول امرىء القيس فى وصف الفرس:

---

(١) البلاغة التطبيقية: د. أحمد موسى ص: ٢٨٨، ٢٨٩ ط أولى.

فعادى عِداءً بين ثورٍ ونعجةٍ دِراكاً فلم يَنْضَحْ بماءٍ فيُغْسَلِ (١)

فادعى أن فرسه أدرك ثوراً وبقرة وحشيين فى طلق واحد، ولم يصبه العرق وهذا ممكن عقلا وعادة .

ومثله قول أبى الطيب :

وأصرعُ أيَّ الوحشِ قفَّيْتُهُ بهِ وأنزلُ عنه مثلَهُ حين أركبُ

أى : إذا نزل عنه عقب شوط طويل من الصيد والطراد ، كان فى حالة شبيهة بالحالة التى كان عليها حينما ركبه ، فلم يتعب ولم يجهد ، وهذا ممكن عقلا وعادة .

الإغراق :

فإن كان الوصف المدعى ممكنا عقلا لا عادة سمى : إغراقا ، وهو : على ضربين :

الأول : أن يقترن به ما يجعله قريباً من العقل كلو ولولا وكاد وكأن ، فتظهر محاسنه ، ويحمل السامع على الإصغاء لما يقول ، كقول امرىء القيس فى وصف محبوبته :

من القاصراتِ الطرفِ لَوْ دَبَّ مُحْوِلٌ
من الذَّرِّ فوقَ الإتْبِ منها لأثَّرا

---

(١) العداء : بالكسر الموالاة بين الصيدين يصرع أحدهما على إثر الآخر فى طلق واحد ؛ والمراد بالثور الذكر من بقر الوحش ، وبالنعجة الأنثى منها — دراكا — أى : متتابعاً .

فقد وصفها بالرقة ، ونعومة الجلد ، وبالغ فى ذلك ، بحيث إن الذرة لو مشت فوق ثيابها لأثرت فى جسمها ، وقد قرب الدعوى إلى العقل بذكر لفظ : لو — لحمل السامع على الإصغاء لما يقول .

ومثله قول المتنبي :

كفى بجسمى نحولاً أننى رجلٌ   لولا مخاطبتى إياكَ لمْ ترنى

فقد أغرق فى وصف نفسه بشدة النحول ، بحيث لا يمكن الاستدلال عليه إلا بصوته ، وقد قرب الدعوى من العقل بذكر لفظ : « لولا » لحمل السامع على الإصغاء لما يقول .

ثانى : أن يجىء مجردا عما سبق من المقربات كقول عمرو التغلبي :

ونكرم جارنا مادام فينا   ونتبعه الكرامة حيث مالا

فقد ادعى أن عطاءهم لا يتخلف عن جيرانهم ، ولا يفارقهم أينما حلوا ، وإلى حيث يرتحلون ، وذلك ممكن ومقبول من وجهة العقل دون العادة .

الغلو :

فإن كان الوصف المدعى غير ممكن عقلا وعادة ، سمى غلوا ، وهو ميدان التنافس والسبق بين الشعراء والأدباء ، ويكون مقبولا إن اقترن به مايقربه من الإمكان كلفظ يكاد فى قول ابن حمديس :

ويكادُ يخرجُ سرعةً من ظلّهِ   لو كان يرغَبُ فى فراقِ رفيقِ

فقد غلا فى وصف فرسه بالسرعة بحيث يفارق ظله ، وذلك ممتنع عقلا وعادة ، لأن ظل الشيء لا يفترق عنه ، لكنه قرب الدعوى بلفظ ـ يكاد ،

ومن ذلك قوله عز وجل : (يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ...)(١) فإضاءة الزيت من غير نار غير ممكن عقلا وعادة ، لكنه قرب الدعوى من الإمكان بلفظ : يكاد .

— كما يكون الغلو مقبولا إذا تضمن نوعاً حسناً من التخييل ، كقول الشاعر :

عقدت سنابكها عليها عثيراً ... لو تبتغي عنقاً عليه لأمكنا(٢)

فقد بالغ وغلا في وصف الغبار الذي تثيره حوافر الخيل ، بحيث جعله كالطريق الذي يتمكن من السير عليه بسرعة ، وبهذا التخييل الحسن أصبح الغلو مقبولا .

وقد اجتمع الأول والثاني في قول الأرّجاني يصف الليل بالطول :

يخيلُ لي أنْ سُمِّرَ الشهبُ في الدجى
وشُــدَّتْ بأهدابي إليهنَّ أجفاني

أي : يقع في خيالي أن الشهب محكمة بالمسامير لا تزول عن مكانها ، وأن أجفان عيني قد شدت بأهدابها إلى الشهب ، لطول ذلك الليل وبطء مروره ، وذلك تخييل حسن ، وقد زاده حسناً لفظ يخيل .

— كما يكون الغلو مقبولا إذا خرج مخرج الخلاعة والهزل ، كقول الشاعر :

---

(١) سورة النور : ٣٥

(٢) السنابك : حوافر الخيل ، والعثير : الغبار ، والعنق : السير السريع .

أسكر بالأمس إن عزمتُ على الشربِ غدًا إن ذا من العجبِ

فالسكر على هذه الصفة محال ، وقد حسنه القول لمجرد سرور المجالس ومضاحكته .

— فإن لم يقترن بشيء مما ذكر كان غير مقبول ، كقول أبي نواس في مدح هارون الرشيد :

وأخفتَ أهلَ الشركِ حتى إنه لتخافك النطفُ التي لم تُخلقِ

فقد غلا في رفعة شأن الممدوح أن جعل النطف التي لم تخلق بعد تخشى بأسه ، وتخاف جانبه ، ولم يقترن بشيء يقربه إلى الصحة ، لذا كان غير مقبول ، وكقول أبي الطيب :

كأني دحوتُ الأرضَ من خبرتي بها
كأني بنى الاسكندرُ السدَّ من عزمي

فقد شبه نفسه بالخالق جل وعلا في دحوه الأرض ، ثم هوى إلى الحضيض ، فشبه نفسه بالاسكندر ، ولذا كان الغلو فيه مردوداً .

حسن التعليل

وهو أن يأتى البليغ شاعرا أو ناثرا لما يدعيه بعلة مناسبة له باعتبار لطيف غير حقيقى ، وهذا الوصف الذى يؤتى له بتلك العلة غير الحقيقية لتقريره وتثبيته ، إما ثابت قصد بيان علته ، حيث لا يظهر له فى العادة علة، كقول أبى الطيب :

لم تحك نائلَكَ السحابُ وإنما ... حُمَّتْ به فصبيبها الرُّحَضَاءُ(١)

فقد جعل الممدوح يفوق السحاب فى الجود ، ودلل على ذلك بأن المطر النازل من السحاب ليس إلا عرق الحمى الناشئة عن غيظه من الممدوح ، والتشبيه بالسحاب فى الجود وإن كان ظاهرا قريبا لظهور وجه الشبه ، إلا أنه جاءهنا فى غاية البراعة والغرابة ، لهذا التعليل اللطيف الذى جعل به الشاعر الممدوح يفوق السحاب فى الجود :

وكقول أبى تمام :

لا تنكرى عَطَل الكريمِ من الغنى ... فالسيلُ حربٌ للمكان العالى

فقد تلطف فى التدليل على قلة ثروة الكريم ، بأن قاس حالته بقمم الجبال التى تكون دائما محط جرف السيول ، أو يظهر لهذا الوصف الثابت علة غير المذكورة ، كقول أبى الطيب .

مَا بِهِ قتلُ أعاديهِ ولكـنْ ... يتّقى إخلافَ ماترجُو الذّئابُ

فقد ذكر علة أخرى لقتل الأعداء غير المعروفة والمقررة وهى التخلص

---

(١) النائل : العطاء ، حمت : أصيبت بالحمى ، الرحضاء : عرق الحمى

من أذاهم ودفع شرهم ، بأنه يريد أن يوفر للذئاب ما ترجوه ، وألا يردها خائبة ، لطبيعة الكرم التي تغلب عليه .

فالوصف فيما مضى كان ثابتا وقصد بيان علته .

وقد لا يكون الوصف ثابتا ويراد إثباته ، وهو إما ممكن كقول مسلم ابن الوليد :

يا واشيًا حَسُنَتْ فينا إساءتُهُ
نجّى حِذارُكَ إنسانِي من الغرَقِ (١)

فاستحسان إساءة الواشي ممكن ، ولما خالف الناس فيه عقبه ببيان سببه وهو أن حذاره من الواشي منعه من البكاء ، فسلم إنسان عينيه من الغرق في الدموع .

أو غير ممكن ، كمعنى بيت فارسي ترجمته :

لو لم تكنْ نيةُ الجـوزاءِ خدمتَهُ
لما رأيتَ عليها عِقْدَ مُنتطقِ (٢)

ويلحق بحسن التعليل وليس به لبناء الأمر فيه على الشك قول أبي تمام :

رُبًى شفعَتْ ريحُ الصَّبَـا لرياضِها
إلى المزنِ حتى جادَها وهْوَ هَامعُ

كأنَّ السحابَ الغرَّ غَيَّبْنَ تحتَهـا
حبيباً فما ترقَا لهنَّ مدامِـعُ (٣)

(١) إنساني : يعني به إنسان عينه وهو سوادها .

(٢) الجوزاء : برج فلكي حوله نجوم تسمى نطاق الجوزاء ، والمنتطق ذو النطاق ، وهو ما يشد في الوسط .

(٣) الربى : جمع ربوة ، هي التل المرتفع من الأرض ، والصبا : ريح =

نقد علل نزول المطر من السحاب ، بأنها تبكى على حبيب تحتها ، وبنى الأمر فى ذلك على الشك .

المذهب الكلامى

وهو : أن يأتى البليغ على صحة دعواه وإبطال دعوى خصمه بحجة على طريقة أهل الكلام ، وقد ورد على أكمل وجوهه فى القرآن الكريم ، كقوله تعالى :

(وَهُوَ الذى يبدأُ الخلقَ ثم يعيدُه وهُوَ أهونُ عليه ولهُ المثلُ الأعلى فى السموات والأرضِ وهُوَ العزيزُ الحكيمُ)(١) أى : والإعادة أهونُ عليه من البدء ، والأهون من البدء أدخل فى الإمكان من البدء وهو المطلوب ، وقوله تعالى : (فلما أفلَ قال لا أحبُّ الآفلينَ(٢) أى : القمر آفل وربى ليس بآفل فالقمر ليس بربى ، وقوله عليه الصلاة والسلام : لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا وبكيتم كثيرا) .

وتمام الدليل : لكنكم ضحكتم كثيرا وبكيتم قليلا فلم تعلموا ما أعلم .

ومنه قول النابغة الذبيانى يعتذر إلى النعمان :

حلفتُ فلم أتركْ لنفسك ريبةً ... وليس وراءَ اللهِ للمرء مطلبُ
لئن كنتَ قد بُلِّغتَ عنى خيانةً ... لمبلغُكَ الواشِى أغشُّ وأكذبُ

— تهب من الشرق ، والمزن : السحاب الأبيض ، الهامع : السائل بكثرة ، الغر جمع غراء : وهى السحاب الماطرة الغزيرة الماء .

(١) سورة الروم : ٢٧ .

(٢) سورة الأنعام : ٧٦

ولكنّي كنتُ امرءًا لى جَانِبٌ
من الأرض فيه مستراد ومذهبُ(١)

ملوكٌ وإخوانٌ إذا ما مدحتُهم ... أحكّم في أموالهم وأقرّبُ

كفعلك في قوم أراك اصطفيتَهم ... فلَم تَرهُم في مدحِهم لَكَ أذنبُوا

أى : أنت أحسنت إلى قوم فدحوك، وقد أحسنَ إلىّ قومٌ فدحتهم فكما أن مدح أولئك لك لا يعد ذنبا ، فكذلك مدحي مَنْ أحسَن إلىّ لا يعد ذنبا(٢)

المستراد : موضع طلب الرزق : مأخوذ من : راد الكلأ بمعنى : طلبه والمذهب : موضع الذهاب إلى الحاجات .

(٢) انظر بغية الإيضاح ٤/ ١٠٥٠ .

السرقات الشعرية

قيمتها البلاغية والنقدية :

لا يبلغ الناقد فى حقل الدراسات الأدبية والنقدية المكانة اللائقة والمنزلة العالية إلا إذا تمكن من المفاضلة بين الشعراء والموازنة بينهم فى أخص ما تكون فيه المفاضلة وهى المعانى التى قدموها والأمثلة التى ساقوها أهى من ابتكارهم وابتداعهم أم من ابتداع من سبقوهم وابتكار من تقدموهم ؟

وإذا لم يكونوا لها مبتدعين فكيف تم تناولهم لها ؟ أوقفوا عند النقل والمحاكاة بدون ما زيادة أو إضافة ؟ أم حاولوا التغيير فكان تغييرهم حسنا أو غير حسن ؟

ذلك ما يتناوله بحث : السرقات الشعرية - وهى كما رأيت : أن يسبق بعض الشعراء إلى تقرير معنى من المعانى واستنباطه ، ثم يأتى بعده شاعر آخر يأخذ ذلك المعنى ويكسوه عبارة أخرى - ويختلف حال الآخذ فتارة يكون حسنا جميلا ، وتارة يكون رديئا قبيحا على قدر جودة الذكاء والفطنة بين الشاعرين . فمن الشعراء من يأخذ كرة وبعرة ويرده ياقوتة ودرة ومنهم من يأخذ ديباجة ويرده عباءة (١) .

والإلمام بالسرقات الشعرية ضرورى كما عرفت لمن يريد أن يكون على حظ من النقد الأدبى ، ولذ نرى القاضى الجرجانى صاحب الوساطة يقول فى ذلك . « ولست تعد من جهابذة الكلام ، ونقاد الشعر حتى تميز بين أصنافه وأقسامه - وتحيط علما برتبه ومنازله ، فتفصل بين السرق والغصب ،

---

(١) انظر : الطراز للعلوى ٣ / ١٧٨ ، ١٨٩

وبين الإغارة والاختلاس، وتعرف الإلمام من الملاحظة، وتفرق بين المشترك الذي لا يجوز ادعاء السرق فيه، والمبتذل الذي ليس أحد أولى به، وبين المختص الذي حازه المبتدىء فملكه، وأحياه السابق فاقتطعه، فصار المعتدي مختلساً سارقاً، والمشارك له محتذيا تابعاً، وتعرف اللفظ الذي يجوز أن يقال فيه: أُخذ ونقل، والكلمة التي يصح أن يقال فيها هي لفلان دون فلان(١).

المعاني بين الابتداع والاتباع:

وقد ذهب طائفة من النقاد إلى أن كل المعاني التي ترد على الخاطر قد استغرقها الشعراء، وأتوا عليها، فلا يوجد معنى يظن أنه جديد بديع إلا يوقف بعد البحث والتأمل على أنه قديم ليس جديدا ومن هؤلاء القاضي الجرجاني الذي يقول: «ومتى أنصفت علمت أن أهل عصرنا ثم العصر الذي بعده أقرب فيه إلى المعذرة، وأبعد من المذمة، لأن من تقدمنا قد استغرق المعاني وسبق إليها وأتى على معظمها، وإنما يحصل على بقايا إما أن تكون تركت رغبة عنها، واستهانة بها، أو لبعد مطلبها واعتياص مرامها وتعذر الوصول إليها. ومتى أجهد أحدنا نفسه وأعمل فكره وأتعب خاطره وذهنه في تحصيل معنى يظنه غريباً مبتدعاً، ونظم بيت يحسبه فردا مخترعا، ثم تصفح عنه الدواوين لم يخطئه أن يجده بعينه أو يجد له مثالا يغض من حسنه، ولهذا السبب أحظر على نفسي ولا أرى لغيري بت الحكم على شاعر بالسرقة»(٢)

وفضلا عن النتائج السيئة التي يؤدي إليها هذا الرأي من الحجر على

---

(١) الوساطة ص ١٨٣ تحقيق على البجاوي.

(٢) الوساطة ص ٢١٤، ٢١٥

الملكات وسد الأبواب فى وجوه المبدعين والمخترعين والمبتكرين ، فإن المنطق يرفضه والعقل ينقضه ، حيث إن الحياة متطورة ومتجددة ، والأدب ولاسيما الشعر تصوير وتسجيل لما فى الحياة ، ومن الضرورى أن تتطور الآداب بتطور الحياة ، وأن تسجل الأشعار كل جديدها ومبتدعها .

وإذا كان كل عصر يختلف عن العصر الذى سبقه فى كثير من شئون الحياة فى الزراعة والصناعة والتجارة — فى السلم والحرب — فى الاختراعات والاكتشافات فإنه من الضرورى أن يصور الأدب هذه الاختلافات ، وأن يسجل الشعر تلك المتجددات ـ ومادامت الحياة قائمة فإن كل مافيها يتغير ويتطور حتى الأدب والشعر الذى يصورها ويسجل متغيراتها يتطور بتطورها ، ويعكس كل جديد فيها .

والثقافة سلسلة متصلة الحلقات متشابكة العرى ، وكل يتأثر بما سبقه ، ثم يواصل المسيرة ، ويستمر فى البناء إما بالزيادة والتحسين ، وإما بالنقص والتشويه .

والشعر كواد من أودية المعرفة يخضع لذلك المبدأ العام والقانون المطرد ، فليس عيباً أن يحذو الشاعر من سبقه ، ويقتفى آثار من تقدمه فى المعانى والأغراض ، بل يحمد له ذلك التقليد ، ويشكر له هذا الاحتذاء والاقتفاء حين يضيف إلى ما أصاب من المعانى جديداً يجعله أكثر إبداعاً وأحسن روعة وبياناً ، ومثل ذلك يحسن أن يسمى إبداعاً وابتكاراً ، فأما حين يكتفى بما يقف عليه من المعانى ، مكرراً له بشكله ومضمونه ، أو متصرفا فيه بما يقلل من روعته وينقص من حسنه وبهجته فذلك مما يذم له ويعاب عليه ، ومثله يسمى : سرقة مذمومة .

المعانى العامة والخاصة :

فباب الابتداع للمعانى مفتوح إلى يوم القيامة ، إذ فى كل يوم نسمع من التعابير المستحدثة والأساليب الجديدة مالم نر له مثيلا ولا نظيرا ، وإن كان هناك معان وصور يتساوى فى معرفتها معظم الناس ، فلا مجال فيها لابتكار أو ابتداع كقولهم فى الغزل :

عفت الديارُ وما عفتْ آثارُهنّ من القلوب

وكقولهم فى المديح : إن عطاءه كالبحر وكالسحاب ، وإنه يجود ابتداء من غير مسألة ، وكقولهم فى المراثى : إنه استوى فيه الأباعد والأقارب ، وان الذاهب لم يكن واحدا وإنما كان قبيلة — فمثل هذه المعانى التى تشبه أن تكون عامة يشترك جمهور الناس فى معرفتها ، لذا لا يطلق على المتأخر فيها وصف السرقة من المتقدم ، بل يطلق وصف السرقة فى المعانى المخصوصة كقول أبى تمام :

لا تنكروا ضَرْبى له مَنْ دونَه
مثلاً شرودًا فى النَّدى والبأسِ
فالله قد ضربَ الأقلَّ لنورِهِ
مثلاً من المشكاةِ والنبراسِ

فذلك معنى مخصوص ابتدعه أبو تمام – ولابتداعه سبب والحكاية فيه مشهورة وهى أنه لما أنشد أحمدَ بنَ المعتصم قصيدته السينية التى مطلعها : « مافى وقوفك ساعة من باس» انتهى إلى قوله :

إقدامُ عمرٍو فى سماحةِ حاتمٍ
فى حلمِ أحنفَ فى ذكاءِ إياسِ

فقال الحكيم الكندي : وأي فخر في تشبيه ابن أمير المؤمنين بأجلاف العرب فأطرق أبو تمام، ثم أنشد هذين البيتين معتذرا عن تشبيهه إياه بعمرو وحاتم وإياس ، وهذا معنى يشهد به الحال أنه ابتدعه ، فمن أتى بعده بهذا المعنى أو بجزء منه فإنه يكون سارقا له .

وقد قسم البلاغيون والنقاد المعاني المسروقة إلى مايسمى : النسخ والسلخ والمسخ .

النسخ

وهو مأخوذ من قولهم نسخت الكتاب إذا نقلت مافيه إلى غيره ، وذلك لأن أحد الشاعرين يأخذ معنى صاحبه وينقله إلى تأليف آخر ، وهو ضربان : أحدهما : أن يؤخذ المعنى واللفظ جميعاً ، ولا يكون الاختلاف إلا في كلمة واحدة ومثاله قول امرىء القيس :

وقوفاً بها صحبي عليّ مطيهم   يقولون لاتهلك أسى وتحمّلِ

أخذه طرفة بن العبد واسترقه واجراه على منواله الأول فقال :

وقوفاً بها صحبي عليّ مطيهم   يقولون لاتهلك أسى وتجلّدِ

وكقول الفرزدق في مهاجاة جرير :

أتعدلُ أحساباً لئاماً حماتُها   بأحسابنا إني إلى الله راجع

فأجابه جرير واسترق ماذكره فقال :

أتعدل أحساباً كراماً حماتها   بأحسابكم إني إلى الله راجع

وكقول العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه :

وما الناسُ بالناسِ الذين عهدتهم   ولا الدار بالدار التي كنتَ تعلم

أخذه الفرزدق فقال :

وما الناس بالناس الذين عهدتهم
ولا الدار بالدار التي كنتَ تعرفُ

وثانيهما : مايؤخذ فيه المعنى وأكثر اللفظ .

مثاله ماقاله بعضهم يمدح معبداً صاحب الغناء ويذكر فضله على غيره ممن ولع بالغناء :

أجاد طويسٌ والسريجيُّ بعده ... وما قَصَباتُ السبق إلا لمعبدِ

أخذه أبو تمام فقال :

محاسنُ أوصافِ المغنين جمةٌ ... وما قصباتُ السبقِ إلا لمعبدِ

فاورد المعنى بعينه مع أكثر اللفظ الأول .

وكقول الأبيرد اليربوعي :

فتىً يشترى حُسنَ الثناء بماله ... إذا السنةُ الشهباءُ أعوزَها القَطْرُ(١)

فقال أبو نواس :

فتىً يشترى حسنَ الثناءِ بمالِهِ ... ويعلمَ أن الدائراتِ تدورُ(٢)

وهذا النوع من السرقة يعرف بوقوع الحافر على الحافر ، وهو مذموم مردود ، لأن السرقة فيه ظاهرة ليس فيها إضافة تحسنها ولا زيادة تزينها .

السلخ : وهو أخذ بعض المعنى — مشتقا من سلخ أديم الشاة ، وهو أخذ بعض جسم المسلوخ . وهو على وجوه .

---

(١) الشهباء : المجدبة ، القطر : المطر ، وهو كناية عن انقطاعه فيها .

(٢) الدائرات : الدواهي ، تدور : تنقلب ويداولها الله بين الناس .

الأول : أن يؤخذ المعنى ويستخرج منه مايشبهه ، ولايكون هو إياه ، وذلك من أدق السرقات مذهباً وأحسنها صورة ، ولا يأتي إلا قليلا كقول بعض شعراء الحماسة :

لقد زادني حبّاً لنفسيَ أنني
بغيضٌ إلى كلّ امرىءٍ غيرِ طائلِ(١)

فأخذ المتنبي هذا المعنى ، واستخرج منه معنى آخر غيره ،إلا أنه شبيه به فقال :

وإذَا أتتكَ مذمّتي منْ ناقصٍ فَهِيَ الشهادَةُ لِي بأنّي فاضلُ(٢)

فالأول يرى أن بغض من لاقيمة له يزيده حبا لنفسه ، والمتنبي يقول : إن ذم الناقص له شهادة بالفضل له ،فذم الناقص له كبغض من لاقيمة له للسابق فالمعنى غير الأول لكن بينهما شبها واضحا كما ترى .

ومن هذا النوع من السرقة مما تشابه فيه معنى الثاني مع الأول قول جرير :

فلا يمنعك من أربِ لِحَاهُمْ سواءٌ ذو العمامةِ والخمارِ(٣)

وقول أبي الطيب بعده :

وَمَنْ في كفّه منهم قنـــاةٌ كَمَنْ في كفّه منهم خِضابُ(٤)

---

(١) غير طائل - غير فاضل .

(٢) من قصيدته في مدح القاضي أبي الفضل أحمد بن عبد الله الأنطاكي ومطلعها

لك يامنازل في القلوب منازل أقفرت أنت وهن منك أواهل

(٣) الأرب : الحاجة - ذو العمامة : الرجل - ذات الخمار : المرأة

(٤) القناة الرمح - الخضاب : الحناء

فقد أفاد الأول أن رجالهم كنسائهم ، فكنى عن الرجل « بالعمامة » وعن المرأة « بالخمار » ، والثانى أفاد أيضا أنهما سواء ، الرجل الذى كنى عنه بحمل الرمح ، والمرأة التى كنى عنها بوضع الخضاب فى يدها .

ولا يغير من التشابه مجىء أحد المعنيين فى المديح والآخر فى الهجاء ونحو ذلك ، فإن من الحذق والبراعة فى التصرف أن يحتال الشاعر لإخفاء ما أخذه من جهة الغرض والوزن وغير ذلك (١)

الثانى : أن يؤخذ المعنى مجردا من اللفظ ، ولا يقع ذلك إلا قليلا لصعوبته ، ومنه قول عروة بن الورد من شعراء الحماسة :

ومن يكُ مثلى ذا عيالٍ ومقترًا　　　من المال يطرحْ نفسَه كلَّ مطرحِ

ليبلغَ عذرًا أو ينالَ رغيبةً　　　ومبلغُ نفسٍ عذرَها مثلُ منجحِ

فأخذ أبو تمام هذا المعنى وقال :

فتى مات بين الضربِ والطعنِ ميتةً
　　تقومُ مقامَ النصرِ إذْ فاته النصرُ

فعروة بن الورد جعل اجتهاده فى طلب الرزق عذرا يقوم مقام النجاح وأبو تمام جعل الموت فى الحرب الذى هو الغاية من الجهاد أمرا مغنيا عن الانتصار ، وكلا المعنيين واحد ، غير أن لفظهما مختلف (٢)

الثالث : أخذ المعنى وقليل من اللفظ ، وهو من أقبح السرقات كقول على ابن جبلة :

العيدُ يومٌ من الأيام منتظرٌ　　　والناس كلَّ يومٍ منك فى عيدِ

---

(١) المثل السائر ٣ : ٢٣٧

(٢) بغية الإيضاح ٤ : ١٢٦

أخذه البحترى فقال :

كل عيدٍ له انقضاءٌ وكلٌّ كلَّ يومٍ من جوده فى عيدِ

وقول حسان بن ثابت فى مدحه للنبى ﷺ

ما إن مدحتُ محمدا بمقالتى لكنْ مدحتُ مقالتى بمحمدِ

أخذه أبو تمام فقال :

فلم أمدحك تفخيماً بشعرى ولكنّى مدحتُ بكَ المديحا

الرابع : أن يؤخذ المعنى فيعكس ، وهو حسن يكاد يخرجه حسنه عن حد السرقة كقول أبى نواس :

قالوا عشقتَ صغيرةً فأجبتُهم أشهى المطىِّ إلىَّ ما لم يُركَبِ
كم بينَ حبةِ لؤلؤٍ مثقوبةٍ لُبِسَتْ وحبةِ لؤلؤٍ لم تُثقَبِ

فقال مسلم بن الوليد على النقيض من ذلك :

إن المطيةَ لا يلذُّ ركوبُها حتى تُذلَّلَ بالزمامِ وتُركَبا
والحَبُّ ليس بنافعٍ أربابَهُ حتى يُفصَّلَ فى النظامِ ويُثقَبا

ومنه أيضا قول أبى الشيص :

أجدُ الملامةَ فى هواكِ لذيذةً
حبًّا لذكركِ فليلُمْنى اللُّوَّمُ

فأخذه أبو الطيب المتنبى وعكسه قائلا :

أَأُحبُّهُ وأحبُّ فيهِ ملامةً
إن الملامةَ فيهِ من أعدائِهِ

وقول أبو الطيب كذلك :

والجراحاتُ عنده نغَماتٌ سُبِقَتْ قبلَ سَيْبِه بسُؤالِ(١)

فقد ناقض به قول أبي تمام :

ونغمةُ معتفٍ جدواهُ أحلَى علَى أُذنيهِ من وقعِ السَّماعِ(٢)

وتبعه البحتري فقال

نشوانَ يطربُ للسؤالِ كأنَّما غنَّاه مالكُ طيّئٍ أو معبدُ

الوجه الخامس من السلخ :

أن يؤخذ بعض المعنى ، كقول أمية بن أبي الصلت يمدح عبد الله بن جُدعان :

عطاؤكَ زينٌ لامرىءٍ إن حبوتَه
بِبذلٍ وما كلُّ العطاءِ يَزينُ

وليس بشينٍ لامرىءٍ بذلُ وجهِه
إليكَ كما بعضُ السؤالِ يَشينُ

أخذه أبو تمام فقال :

تدعى عطاياه وفراً وهْي إن شُهِرت
كانت فخاراً لمن يعفوه مؤتنفا

---

(١) السيب : العطاء : يريد أن نغمات السؤال تؤثر في الممدوح وتؤذيه كالجراحات فيعطي من غير سؤال .

(٢) المعتفي : الطالب ، الجدوى : العطية ، أي تلذذه بسؤال الطالبين للعطاء أشد من تلذذه بسماع الغناء الجميل .

مازلتَ منتظراً أعجوبةً زمناً   حتى رأيتَ سؤالاً يجتنى شرفا

فقد أتى أمية بن أبي الصلت بمعنيين اثنين : أحدهما : أن عطاء الممدوح زين ، وليست كل العطايا زينا ـ وثانيهما : أن سؤاله ليس عيبا إذا كان بعض السؤال معيبا ، فجاء أبو تمام بالمعنى الأول لا غير .

كذلك ورد قول ابن الرومى :

نزلتم على هام المعالى إذا ارتقى   إليها أناسٌ غيركم بالسلالم

أخذه أبو الطيب المتنبي فقال :

فوقَ السماءِ وفوقَ ما طلبُوا   فاذا أرادُوا غايةً نزلُوا

فهو بعض المعنى الذى تضمنه قول ابن الرومى ، لأنه قال : إنكم نزلتم على هام المعالى ، وإن غيركم يرقى إليها رُقياً ، وأما المتنبي فقال : إنكم اذا أردتم غاية نزلتم ، وأما قوله : (فوق السماء) فيغنى عنه قول ابن الرومى :

(نزلتم على هام المعالى) إذ المعـــالى فوق كل شيء ، لأنها مختصة بالعلو مطلقا

الوجه السادس من السلخ :

أن يؤخذ المعنى فيزاد عليه معنى آخر ، كقول بن المعذل بن غيلان :

واسعَ بنظّارٍ إلى جانب العلا
إذا كانت العلياءُ فى جانب الفقــر

أخذه أبو تمام فقال

يصد عن الدنيا إذا عنّ سُؤددٌ
ولو برزتْ فى زىّ عذراءَ ناهد

فقد أخذ المعنى وزاد عليه زيادة حسنة هى قوله : « ولو برزت فى زى عذراء ناهد »

كذلك قول جرير :

إذا غضبتْ عليكَ بنو تميمٍ
حَسِبْتَ الناسَ كلَّهمُ غِضَاباً

أى أن غضبهم بمنزلة غضب كل الناس .

أخذه أبو نواس فقال :

ليس على الله بمستنكرٍ
أنْ يجمع العالَمَ فى واحدِ

ونرى أن « جريرا » جعل الناس جميعهم بنى تميم ، و « أبو نواس » جعل العالم كله فى واحد ، فكان أشمل وأبلغ بهذه الزيادة الحسنة .

الوجه السابع : أن يؤخذ المعنى ، فيكسى عبارة أحسن من الأولى ، فيخرج بذلك من السرقة ، كقول أبى تمام .

جذلانُ من ظفرٍ حرانُ إن رجعتْ
مخضوبةً منكم أظفارُهُ بدمِ

أخذه البحترى فقال :

إذا احتربتْ يومًا ففاضتْ دماؤُها
تذكَّرتِ القربى ففاضتْ دموعُها

فقد أخذ البحترى المعنى وهو الجمع بين الفرح والسرور ونظمه فى عبارة حسنة جعلته أحسن إبداعا وأكثر جمالا بهذه المزاوجة اللطيفة بين

الاحتراب وفيضان الدماء وتذكر القربى وفيضان الدموع ، ولا يخفى عليك ما يؤديه التعبير « بفاض » من روعة وبيان .

ومنه أيضا قول أبي تمام :

إن الكرامَ كثيرٌ في البلاد وإن قلُّوا كما غيرُهم قلُّوا وإن كَثُرُوا

أي إن الكرام كثيرون بآثارهم الطيبة وخصالهم الجيدة وإن كانوا قلة ، فالكثرة والقلة مردهما إلى الآثار والنتائج لا إلى العدد والكم ، فقد يكون العدد كثيرا ولا أثر له ولا فوائد لأصحابه فيعد قليلا .

أخذه البحتري وصاغه في عبارة جميلة فازداد حسنا بقوله :

قلَّ الكرامُ فصار يكثُرُ فذُّهم
ولقد يقلُّ الشيءُ حتى يكثُرَا

الوجه الثامن : أن يؤخذ المعنى ويسبك سبكا موجزا ، وهو من السرقات المحمودة كذلك ، لما فيه من الدلالة على مهارة الشاعر ، واقتداره على التصرف ، كقول بشار :

من راقب الناسَ لم يظفرْ بحاجته
وفاز بالطيباتِ الفاتكُ اللهجُ(١)

فأخذه سَلْمٌ الخاسر فقال :

من راقب الناس مات غماً وفاز باللذةِ الجسورُ(٢)

فبيت سَلْمٍ أجود سبكا وأوجز وأخف وأعذب .

---

(١) الفاتك : الشجاع القتال ، الملازم لما يطلبه المقدام .
(٢) الجسور : الجريء .

ومن ذلك قول الآخر :

خلقنـــا لهم فى كل عينٍ وحاجبٍ

بسُمْرِ القَنَا والبيضِ عينًا وحاجِبًا(١)

جاعلا الجرح الناجم عن الرمح عينا لاستدارته ، والجرح الناشئ عن السيف حاجبا لاستطالته ، على سبيل الاستعارة ، بطريقة اللف والنشر المرتب.

فقال ابن نباتة بعده :

خلقنا بأطراف القنا فى ظهورهمْ عيونًا لها وقعُ السيوفِ حواجبُ

مشيرا بقوله : « فى ظهورهم » إلى هزيمتهم ، فكان أبلغ .

ومما يجرى على هذا النهج قول أبى تمام :

كانت مساءلةُ الركبانِ تخبرنى عن أحمدَ بنَ سعيدٍ أطيبَ الخبرِ

حتى التقينا فلا والله ما سمعتْ أذنى بأحسنَ مما قد رأى بصَرى

أخذه أبو الطيب المتنبى ، فأوجز حيث قال :

وأَستكْبِرُ الأخبارَ قبلَ لقائهِ فلما التقينا صَغَّرَ الخبرَ الخُبْرُ

ومنه أيضا قول بعض الشعراء :

أمِنْ خَوفِ فقرٍ تعجلتَــهُ وأخَّرْتَ إنفاقَ ما تجمعُ

فصرتَ الفقيرَ وأنتَ الغنيُّ وما كنتَ تعدُو الذى تصنعُ

أخذه أبو الطيب المتنبى فقال :

ومَنْ ينفقِ الساعاتِ فى جمعِ مالِهِ مخافةَ فقرٍ فالذى فعلَ الفقرُ

---

(١) القنا : الرماح جمع قناة ، والبيض : السيوف .

الوجه التاسع : أن يكون المعنى عاما فيجعل خاصا ، أو خاصا فيجعل عاما ، كقول الأخطل :

لا تَنْهَ عن خلقٍ وتأتيَ مثلَهُ   عارٌ عليكَ إذا فعلتَ عظيمُ

فقد ذم من يقع فيما ينهى عنه على سبيل العموم ، فخصصه أبو تمام بالبخل في قوله :

أَألومُ مَنْ بخِلَتْ يداهُ وأغتدِي   للبخلِ تِرْبًا ساءَ ذاكَ صنيعَا

الوجه العاشر من السلخ : أن يتبين فضل الثانى ، وتظهر قيمته باستدلاله على المعنى بما يوضحه ، وتقريبه بالتمثيل له ، كقول أبي تمام :

هو الصنعُ إن يعْجَلْ فنفعٌ وإن يرِثْ

فَلَلريثُ في بعضِ المواطنِ أنفعُ(١)

فأخذه أبو الطيب ، ووضحه بالمثل في قوله :

ومَنَ الخيرِ بطءُ سَيْبِكَ عَنِّي   أسرعُ السُّحْبِ في المسيرِ الجهامُ(٢)

فقد استدل على ما ذهب إليه من ارتياحه لمجيء العطايا متأخرة حيث تكون وفيرة وكثيرة ، بالسحاب الذى لا يحمل ماء حيث يمضى سريعا ، على عكس المحمل بالمياه فإنه يسير بطء ، وذلك من التشبيه الضمنى الذى يتوقف فهمه على التأمل والتدبر لعدم التصريح به .

أما المسخ : فهو إحالة المعنى إلى ما دونه ، مأخوذا من مسخ الآدميين قردة ، حيث تحول الصورة الحسنة إلى قبيحة ، والقبيحة إلى حسنة .

---

(١) الصنع : الإحسان — يرث : أى يبطىء .
(٢) السيب : العطاء ، الجهام : الذى لا ماء فيه .

فمن الأول قول أبي تمام :

فتى لا يرى أن الفريصة مقتل ولكن يرى أن العيوب مقاتل (١)

فقال أبو الطيب المتنبي :

يرى أنما ما بان منك لضارب بأقتل مما بان منك لعائب

يريد أن العيب أشد من القتل ، فما يظهر من الإنسان لعدوه من أجزاء جسمه التي تنفصل عنه بالقتل كالعنق ، لا يكون في شناعة العيب إذا ظهر منه .

فترى أن المعنى سلم من التشوه أما الصورة فقد شوهت ، وذلك من السرقات المذمومة .

أما قلب الصورة القبيحة إلى صورة حسنة ، فإنه إصلاح وتهذيب ، وليس سرقة ، كقول أبي الطيب :

لو كان ما تعطيهم من قبل أن تعطيهم لم يعرفوا التأميلا

وقول ابن نباته السعدي :

لم يبق جودك لي شيئاً أؤمله تركتني أصحب الدنيا بلا أمل

وعلى هذا النحو ورد قول أبي نواس في وصفه اللعب بالكرة والصولجان فقال :

جن على جن وإن كانوا بشر كأنما خيطوا عليها بالإبر

وجاء المتنبي فقال :

فكأنها نتجت قياماً تحتهم وكأنهم ولدوا على صهواتها (٢)

---

(١) الفريصة : عرق في العنق .

(٢) نتجت : أي : ولدت — الصهوات : مقاعد الفرسان على ظهور الخيل .

ومنه أيضا قول أبي الطيب :

إنِّي على شغَفي بما في خُمْرِها ... لأعِفُّ عمَّا في سَرَاويلاتِها

أخذه الشريف الرضي فأحسن فيه كل الإحسان قائلا :

أحنُّ إلى ما يضْمَنُ الخمرُ والحلِيُّ ... وأصْدِفُ عمَّا في ضَمانِ المآزِرِ

لا يحكم بالسرقة إلا بعد بحث وتنقيب :

عرفت فيما سبق أن المعاني منها ما هو عامي أي ذائع ومشهور يجتمع على معرفته جمهور الناس وغالبيتهم ، ومنها الخاصي ، الذي لا يكاد يعرفه ويقف عليه إلا القلة منهم . وهو الذي يحكم فيه بالسرقة ، ويكون مجالا للأخذ كما عرفت أيضا أن إفادة الأدباء ببعضهم ليست عيبا ولا ذما ، فتلك سنة المعرفة ، وذلك سبيل نمو الثقافات وتطورها ، غير أن هذه الإفادة تكون مقبولة مستحسنة إذا أضيف إليها ما يزيد حسنها ، ويرفع شأنها ، وتكون مذمومة ومسروقة إذا لم يحاول صاحبها أن يغير منها بما يحسنها ، أو أضاف إليها ما قلل حسنها ، وأذهب بهجتها ورونقها .

ومفهوم كذلك أن الحكم بالسرقة والأخذ لا يتيسر إلا لمن يعي ويحفظ الأشعار الكثيرة ليكون على بينة من حكمه ، كما لا يحكم أيضا بالسرقة إلا بعد التأكد من أن القائل لم يكن على علم بما قيل قبله ، وإلا كان اتفاقهما فيما قالا من قبيل توارد الخواطر ، مما يجيء على سبيل الاتفاق مصادفة دون أدنى قصد إلى الأخذ والسرقة كما يحكى عن ابن ميادة أنه أنشد لنفسه :

مفيدٌ ومتلافٌ إذا ما أتيتَهُ ... تهلل واهتزَّ اهتزازَ المهنَّدِ(١)

فقيل له : أين يُذْهَبُ بك ؟ هذا للحطيئة ، قال : الآن علمت أنى شاعر ، إذ وافقته على قوله ولم أسمعه (٢).

والقاضى الجرجانى يقول فيما ينبغى أن يتسلح به من يصدر الحكم بالسرقة والأخذ : « وهذا باب يحتاج إلى إنعام الفكر ، وشدة البحث ، وحسن النظر والتحرز من الإقدام قبل التبين ، والحكم إلا بعد الثقة ، وقد يغمض حتى يخفى ، وقد يذهب منه الواضح الجلى على من لم يكن مرتاضا بالصناعة متدربا بالنقد :(٣)

وجوه تتصل بالسرقات الشعرية :

ويتصل بالسرقات الشعرية فى مدلولها العام وهو الاستعانة بما أبدعه السابقون والافادة من آثارهم أمور منها : الاقتباس - وهو أن يضمن الكلام شعراً كان أو نثراً شيئاً من القرآن أو الحديث لا على أنه منه ، كقول ابن نباته الخطيب :

« فيايها الغفلة المطرقون ، أما أنتم بهذا الحديث مصدقون ، مالكم لا تشفقون ؟ فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون » فقد جعل القول الكريم لكلام ابن نباتة من الحسن والجمال ما لا ينكر، وقد أجاد فى الملاءمة بين ما اقتبسه من القرآن الكريم، وبين ما تقدمه من فِقَر ، فقد صادف

---

(١) المفيد : من يفيد الناس بأمواله ، المتلاف : كثير الإتلاف للأموال تهلل : أضاء وجهه ، المهند : السيف الهندى .

(٢) بغية الإيضاح ٤ / ١٢٩

(٣) الوساطة ص : ١٠٨

الاقتباس موقعه، وأصاب مكانه، وجاء مقبولا وقوله أيضا من خطبة أخرى ذكر فيها القيامة : «هناك يرفع الحجاب، ويوضع الكتاب، ويجمع من وجب له الثواب، وحق عليه العقاب، فيضرب بينهم بسور له باب، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب» فقد جاء الاقتباس مقبولا حسنا كسابقه، لانسجامه مع ما تقدمه من فقر، محدثا ذلك الأثر الموسيقى الجميل الذى تقبله النفس ويرتاح له الفؤاد. وقد ساهم الطباق المقبول والسجع المطبوع مع الاقتباس فى إحداث هذا الأثر الجمالى الذى تدرك روعته وتشاهد حسنه

ويكون الاقتباس من القرآن فى الشعر كذلك كقول الشاعر :

لاتعاشِرْ معشرًا ضلُّوا الهدَى فسواءٌ أقبـلوا أو أدبرُوا
بدَتِ البغضَاءُ من أفواهِهِمْ والذى يُخفُونَ منها أكبَرُ

فقوله : «بدت البغضاء من أفواههم» مقتبس من قوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانةً من دونكم لا يألونكم خبالاً ودُّوا ما عنِتُّم قد بدَتِ البغضاءُ من أفواهِهِمْ وما تخفِى صدورُهُمْ أكبرُ قد بيَّنَّا لكم الآياتِ إن كنتمْ تعقلون»(١)

وقوله :

خلّة الغانياتِ خـلةُ سوءٍ فاتقوا اللهَ يا أولى الألبابِ
وإذا سألتموهـنّ شيئـًا فاسألوهنّ من وراءِ حجَابِ(٢)

فا فى البيت الأول اقتباس من قول الله عز وجل : «فاتقوا اللهَ يا أُولِى الألبابِ» من سورة البقرة «وما فى البيت الثانى مقتبس من سورة الأحزاب

---

(١) سورة آل عمران : ١١٨

(٢) الخلة : الخصلة، والغانيات : النساء الحسان.

ومنه قول الآخر :

إن كنتِ أزمعتِ على هجرنا   من غير ما جُرمٍ فصبرٌ جميل
وإن تبدلتِ بنـا غيرَنا   فحسبُنا اللهُ ونعـمَ الوكيل

فقوله : فصبر جميل فى البيت الأول اقتباس من قوله : « فصبرٌ جميلٌ والله المستعانُ على ما تصفونَ » من سورة يوسف ، والثانى مقتبس من قوله سبحانه : « الذينَ قالَ لهمَ الناسُ إنَّ الناسَ قدْ جمعُوا لكمْ فاخشَوهمْ » آل عمران

ومن اقتباس الحديث فى النثر قول الحريرى :

وكتمانُ الفقرِ زَهادةٌ   وانتظارُ الفرَجِ بالصَّبرِ عِبادةٌ

فقوله : انتظار الفرج بالصبر عبادة ـ لفظ الحديث .

وفى الشعر قول ابن عباد :

قال لى : إن رقيـبى   سيءُ الخُلُـقِ فدارِهْ
قلـت : دعنى وجهكَ   الجنةُ حُفَّتْ بالمكارِهْ(١)

فإنه مقتبس من الحديث : « حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات »

التضمين : ويتصل بالسرقات الشعرية ثالثاً : التضمين وهو : أن يضمن الشعر شيئاً من شعر الغير مع التنبيه عليه إن لم يكن مشهوراً عند البلغاء كقول عبد القاهر بن طاهر التميمى :

إذا ضاقَ صدرِى وخفتُ العِدَا   تمثَّلتُ بيتاً بحالِى يليقْ
فباللهِ أبلغُ ما أرتجِى   وباللهِ أدفعُ ما لا أُطيقْ

ولا بأس من التغيير اليسير فيما ضمن به ليدخله فى معنى الكلام كقول بعض المتأخرين فى يهودى به داء الثعلب :

---

(١) داره : يعنى لاطفه [illegible]

أقولُ لمعشرٍ غَلِطُوا وَغَضُّوا عن الشيخِ الرشيد وأنكروهُ(١)
هو ابنُ جلا وطلاعُ الثنايا متى يضع العمامةَ تعرفُوه

فالبيت المضمن به لسحيم بن وثيل وأصله :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفونى

ويختلف معناه عما أراده الشاعر السابق

العقد : يتصل أيضا بالسرقات الشعرية مايعرف بالعقد ، وهو أن ينظم المنثور لا على طريق الاقتباس ، بأن يكون التغيير كثيرا ، فن عقد القرآن قول الشاعر .

أَنِلْنِى بالذى استقرَضْتَ خَطا وأشهد معشرا قد شاهدوه
فإن الله خلاقُ البرايا عَنَتْ لجلالِ هيبته الوجوهُ
يقول : إذَا تداينتم بدَينٍ إلى أجل مسمى فاكتبوه(٢)

فذلك معقود من قوله تعالى فى سورة البقرة : « يأيها الذين آمنُوا إذَا تدَاينتُم بدَيْنٍ إلى أجلٍ مسمًّى فاكتُبُوهُ »

ومن عقد الحديث ماروى للشافعى رضى الله عنه :

عمدةُ الخيرِ عندنَا كلماتٌ أربعٌ قالهُنَّ خيرُ البريَّةْ
اتقِ الشبهاتِ ، وازْهَدْ ودَعْ مَا لَيْسَ يَعْنِيكَ واعْمَلَنَّ بِنيَّةْ

فقد عقد أى نظم قوله عليه السلام : « الحلال بين والحرام بين وبينهما

---

(١) الغض : الإعراض ، جلا : أى الشعر الذى يتساقط فانجلى من داء القراع ، والثنايا : مقدم الاسنان وكانت بارزة ، والمراد بالعمامة عمامته التى يضعها على رأسه .

(٢) أنلنى : اعطنى ، استقرضت أى : استدنت ، والبرايا : الخلائق جمع برية ، عنت أى : خضعت .

أمور مشتبهات ، وقوله عليه السلام : دازهد فى الدنيا يحبك الله ، وقوله عليه السلام دمن حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه ، وقوله عليه السلام : إنما الأعمال بالنيات ،

وأما عقد غير القرآن والشعر فكقول أبى العتاهية :

ما بالُ مَنْ أولُه نُطفةٌ وجيفةٌ آخِرُه يَفْخَرُ

فعقد قول الامام على رضى الله عنه : ومالابن آدمَ والفخر ، وإنما أوله نطفة وآخره جيفة

الحل : وإذا كان العقد يتمثل فى نظم المنثور كما رأيت ، فإن هناك ما يضاده وهو نثر المنظوم ، ويعرف بالحل ويشترط لقبوله : حسن السبك واستقرار الكلمات فى مواطنها ، كقول بعض المغاربة : فإنه لما قبحت فعلاته ، وحنظلت نخلاته ، لم يزل سوء الظن يقتاده ويصدق توهمه الذى يعتاده ، فذلك نثر لقول أبى الطيب :

إذا ساءَ فعلُ المرءِ ساءَتْ ظنونُه وصدَّقَ ما يعتادُه مِنْ توهُّمِ

وكقول بعض الكتاب فى وصف السيف : أورثه عشق الرقاب نحولا فبكى ، والدمع مطر تزيد به الخدود محولا ، فهو نثر كذلك لقول أبى الطيب فى الخدّ إن عَزَمَ الخليطُ رَحيلاً مَطرٌ تزيدُ به الخدودُ مُحولاً

فهرس الموضوعات